الفارس الأسود

بقلم
عباس خضر

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الفارس الأسود

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ١٤١ -

تأليف	(٩٦)
أدب	(٧١)

القاهرة
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

الفارس الأسود

بقلم

عباس خضر



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٣

مقدمة

كتبت قبل هذه القصة قصتين من « سيرة الأميرة ذات الهمة » هما « الصحصاح » و « ذات الهمة » ونشرتا ، ومتابعة لهما كتبت هذه القصة « الفارس الأسود » التى أقدمها الآن . ولكى يأخذ القارئ فكرة كاملة عن هذا العمل أنقل له هنا مقدمتى القصتين السابقتين ، ثم أعقب عليهما بتقديم القصة الجديدة :

الصحصاح

هذه القصة . . قطاع من « سيرة الأميرة ذات الهمة » إحدى الشوامخ فى الأدب الشعبى العربى ، أو هى بناء جديد مبنى على أساس ذلك القطاع .

و « سيرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشومدرس المحتال » تقع فى سبعين جزءا ، أخرجت فى سبعة مجلدات كبيرة و « الصحصاح » هو جد الأميرة « ذات الهمة » التى سنخصها فيما بعد إن شاء الله بقصة أخرى .

والقصة فى أصلها ، وفى هذا البناء ، تركيب خيالى يمتزج بالتاريخ المعروف . أبطالها الرئيسيون من محض الخيال ، يلتقون بشخصيات تاريخية معروفة ، هى شخصيات ثانوية فى مجرى الحوادث . وقصة « الصحصاح » هذه تقع حوادثها فى زمن « عبد الملك بن مروان » وإن كانت تبدأ قبله بقليل من الزمن .

والأصل يشتمل على كثير مما لا يتفق مع الوقائع التاريخية ، وقد تصرفت فيه بحيث يستقيم الخيال مع الواقع التاريخى ، كما حرصت على تصحيح

النظرة الإسلامية إلى علاقة المسلمين بالمسيحيين وأهداف الكفاح الإسلامى العربى ضد أعداء العرب والمسلمين ، وهو فى الحقيقة – وطبقاً لروح الإسلام – كفاح يرمى إلى ما نسميه الآن بالتعايش السلمى .

وقد عملت على إخراج القصة فى صورة تلائم ذوق العصر ، إذ تأملت فوجدت أن الذين كانوا يقرءون الملاحم الشعبية أو يسمعونها من المنشد على « الربابة » قد انقضوا أو كادوا ، وأن القارئ الحديث لا يستسيغ قراءتها كما هى ، وأن فيها « مادة خام » تصلح لأن تكون مصدر إلهام لأعمال أدبية وفنية جديدة ولأن يبنى منها الكاتب مثل هذا البناء الذى تطالعه فى هذه القصة ... مطابقاً أو قريباً من فن القصة الحديث شكلا ومضموناً ، مع الحرص على بعض السمات والملامح الأصيلة التى تحفظ « نكهة » الأصل .

وأقول فى اختصار وإجمال : إنى أردت بهذا العمل أن أخاطب أبناء عصرى بما يلائم أذواقهم واهتماماتهم .

وقد جرينا فى محاكاة فنون القصة الغربية إلى نهاية الشوط ، ووفقنا فى مواكبة الإنتاج القصصى العالمى ، ولكننا لم نضف إليه ما يدل على شخصيتنا وابتكارنا فى أشكاله ، مع مالنا من تراث قصصى لا يقل شأناً عن تراث الآخرين ... فينبغى أن نقف ولو قليلا لننظر فى هذا الجانب من تراثنا الأدبى ونستمد بذلك من العراقة أصالة .

وقد بدأت العمل الأول – فى هذا المجال – بقصة « حمزة البهلوان » إذ أخرجت منها قصة « حمزة العرب » وسبق ذلك عمل مشابه فى مجال القصة القصيرة بكتابة « حواديت عربية » التى صدرت منها مجموعتان عن « دار المعارف » .

بدأت ذلك متردداً – قبل التنفيذ – ولكن حسن الوقع لدى القارئ الحديث وما لقيته بصفة خاصة قصة « حمزة العرب » من إقبال ونجاح – حثنى على المضى فى هذا السبيل .

وإلى اللقاء فيما يأتى ، ومن الله التوفيق .

ذات الهمـــة

كم في أدبنا الحديث من ذخائر ..

وهي ذخائر مدفونة في تراب .. تراب تراكم عليها من جراء الإعراض عنها ، لا من عامة الشعب فهي أدبهم المحبوب . بل من الأدباء ومؤرخي الأدب ودارسيه في الماضي والحاضر ، ما عدا قلة قليلة من المعاصرين . والإعراض عنها كذلك من سواد المتعلمين الذين حصرهم التعليم الحديث أو القديم في أجواء من الآداب والثقافات لا مكان فيها للآداب الشعبية ، وتوهموا أنها ليست إلا كلاماً فارغاً يتلهى به الجهلاء .

كانت نتيجة ذلك الإعراض أن ظل الأدب الشعبي على حاله بترابه . . . وعزل عن التناول الذي يجعله ملائما ميسرا لمن يطلبه .

وتصور أن أدب العصور المتأخرة ، قبل عصر النهضة الحديثة ، أهمل وظل على حاله . . . كيف يكون حاله وكيف تكون نظرتنا الآن إليه !

لقد خدم الأدب الشعبي أهله أيام سيادته ، وقدموه لمعاصريهم ، إما منشداً مصحوبا بموسيقى الربابة ، أو منشورا في كتب بأسلوب يلائم من تعلموا القراءة « وفك الخط » . . .

ووقف عند ذلك الحد في أوراقه الصفراء وأطماره البالية ، ينظر إليه معظم الناس شذرا كأنه دخيل وهو الأصيل .

وكان لابد - في تقدمنا وشعورنا بالأصالة المصاحب للوعي القومي الجديد من أن نلتفت إلى أدبنا الشعبي ، فنوليه ما ينبغي من دراسته ، ومن إعادة كتابته واستيحائه ، على نحو يختلف من كاتب إلى آخر . وقدمت ونشرت أعمال من هذا وذاك ، في الجامعة وفي المجال الأدبي العام ، واهتم به المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وألفت في المجلس لجنة لتحقيق التراث الشعبي الأدبي ونشره ونحمد للمجلس أن منح جائزة الدولة التشجيعية

فى الرواية للزميل الأستاذ فاروق خورشيد على روايته « سيف بن ذى يزن » .

ويسرنا أن صحب الاهتمام بالأدب الشعبى اهتمام بالفنون الشعبية الأخرى فاستوحيت وطورت فى الموسيقى والرقص والغناء .

وهذه القصة « ذات الهمة » مشاركة فى ذلك ، ومتابعة لإنتاجى السابق فى هذا المجال ، كتبت أولا قصصا قصيرة شعبية نشرت فى مجموعتين بعنوان شامل «حواديت عربية» عنوان الأولى « الطير الخدرى » والثانية «أم السعد» . ثم كتبت قصة طويلة « حمزة العرب » عن قصة « حمزة البهلوان » . ثم كتبت قصة طويلة أيضا « الصحصاح » والصحصاح هو جد « ذات الهمة » والقصتان بنيتا بناء جديداً أخذت مواده الأولية من سيرة « ذات الهمة » إحدى الشوامخ فى الأدب الشعبى العربى .

ومما عنيت به فى هذه القصة تصوير بطلتها « ذات الهمة » فتاة عربية تحس بما فى مجتمعها من منازعات قبلية تلابسها غارات واعتداءات ونهب وسلب ، فتثور على ذلك كله وتعمل على تجميع القوى العربية لمكافحة العدو الخارجى الذى يرمز إلى التجمع الغربى الصليبى المعروف فى التاريخ .

وكان عملى فى هذه القصة على وجه عام مثل مافعلته فى قصصى السابقة وهو كما قلت فى مقدمة « الصحصاح » :

«وقد عملت على إخراج القصة فى صورة تلائم ذوق العصر ، إذ تأملت فوجدت أن الذين كانوا يقرءون الملاحم الشعبية أو يسمعونها من المنشد على « الربابة » قد انقرضوا أو كادوا وأن القارئ الحديث لا يستسيغ قراءتها كما هى ، وأن فيها (مادة خام) تصلح لأن تكون مصدر إلهام لأعمال أدبية وفنية جديدة ، ولأن يبنى منها الكاتب مثل هذا البناء الجديد الذى تطالعه فى هذه القصة . . . مطابقاً أو قريبا من فن القصة الحديث شكلا ومضمونا ، مع الحرص على بعض السمات والملامح الأصيلة التى تحفظ نكهة الأصل . وأقول فى اختصار وإجمال : إنى أردت بهذا العمل أن أخاطب أبناء عصرى بما يلائم أذواقهم واهتماماتهم » .

وأرجو من الله العون على استمرار المتابعة .

الفارس الأسود

والفارس الأسود هو « عبد الوهاب بن ذات الهمة » الذى كانت ولادته أزمة أمه (ذات الهمة) ومحور قصتها ، إذ حملت به فى ظروف غريبة من أبيه الذى تزوجته على غير رغبة فيه أو فى غيره من الرجال ، لأنها كانت تصر على أن تكون فارسة كالرجال . . .

وولد « عبدالوهاب » أسود برغم بياض والديه ، فأنكره أبوه ومن هنا بدأ الصراع فى قصة ذات الهمة ، وسار فيها موازيا للصراع القومى بين العرب والروم . ونلحظ فى القصة صراعا ثالثا بين السواد والبياض هدفه إنكار التفرقة بين اللونين فى الناس . وقضية «السواد» ملحوظة فى كثير من القصص الشعبية ، وكثير من أبطالها سود ، مثل عنترة وأبوزيد وفارسنا عبدالوهاب . وكان ذلك فيما يبدو تعبيراً من الشعب العربى عن مشاعره واحتجاجاً على العناصر الأجنبية البيضاء التى حاولت أن تفرض تلك التفرقة بين أناس يعيشون فى مجتمع واحد ينبغى أن يعاملوا معاملة واحدة لافرق فيها بين أبيض وأسود .

وقد كتبت هذه القصة « الفارس الأسود » فى الظروف الأخيرة التى صارعت فيها القومية العربية ولا تزال تصارع أعداءها ، والتى وقع فيها العدوان على أطراف من البلاد العربية فتأثرت القصة بهذه الأحداث ، وجاءت مشابهة لها مع فارق الزمن ومقتضياته ، فسنرى أبطال العرب يكافحون المغيرين على بلادهم من الروم ومن انضم إليهم لمحاربة العرب ، ويستمر الكفاح والصراع ، ويعمل العنصر العربى الجاد المخلص على التخلص من المعوقات والخلافات الداخلية لكى تتجه الطاقة كلها إلى الأعداء الخارجين ، حتى ينتصر العرب ويطهروا بلادهم من المعتدين عليها ، ولا يكتفون بذلك ، بل يتعقبونهم فى ديارهم ويؤدبونهم حتى لا يعودوا بعد إلى العدوان .

والواقع أن حوادث هذه القصة وإن كانت تقوم على الخيال بطبيعة الفن القصصى تعد صوراً وظلالا للحوادث التاريخية ، فهى كما سبق ترمز إلى الحروب الصليبية المعروفة فى واقع التاريخ .

وقد استوحى الأوربيون أعمالا قصصية من حوادث الحروب الصليبية أما عندنا فلم يكن لتلك الحروب أثر فى أعمال قصصية فى غير المجال الشعبى غير المعترف به عند خاصة الأدباء والمؤلفين ، فانحصر الأثر الأدبى للحروب الصليبية فى قصائد الشعر التى قيلت فى مدح أبطالها ، وأرى أن ذلك يرجع إلى أن الفن القصصى نفسه لم يكن له شأن أدبى يذكر عندنا فى فترة الحروب الصليبية وماتلاها .

وقد اهتم بعض الكتاب فى العصر الحديث بصلاح الدين الأيوبى كبطل من أبطال تلك الحروب ، واتخذ هذا البطل العظيم بطلا لأفلام سينمائية غربية الإنتاج وعربيته .

ولعل محاولاتنا فى مجال القصص الشعبية وما يصحبها من إلقاء الضوء على تلك الناحية تسترعى الانتباه لإنتاج مزيد من الأعمال الروائية والسينمائية والمسرحية التى تتناولها وتستلهمها .

وأرى من تمام الفائدة هنا — وقد أشرت فيما سبق إلى إهمال الأدب الشعبى وتنحيته وازدرائه أدبيا فى العصور الماضية — أن أشير كذلك إلى إلماعات نظرت إليه بتقدير فى تلك العصور :

(١) جاء فى كتاب « وفيات الأعيان » أن سهيل بن على بن أبي غالب الخزرجى وضع كتاباً فى الجن وأخبارها ، وحمله إلى هارون الرشيد ، فقال له فيما قال :

« إن كنت رأيت ماذكرت فقد رأيت عجباً ، وإن لم تكن رأيته فقد وضعت أدباً » .

وهذا النص يدل أولا على أن الرشيد يعد هذا القصص من الأدب ، ويدل ثانياً على مفهوم للأدب تردد فى العصر الحديث فى مقام التفرقة بين القصص الأدبى وبين ما يقص فى حكاية حال واقعة مثل التحقيقات الصحفية ، فالأول قوامه الصور والخيال ، والثانى ليس إلا سردا لما شوهد كما هو .

والأمران اللذان يدل عليهما النص المتقدم يعدان تقدما كبيراً بالنسبة للعصر الذى قيل فيه .

(٢) روى الجاحظ فى كتاب « الحيوان » أن إماما من أئمة الأدب كان يذهب إلى الأسواق ويقف على حلقات القصاصين والمشعوذين ، فإذا أتاه طلبة العلم ليزوروه أو ليأخذوا عنه لا يجدونه فى كثير من الأحيان إلا هناك ، فلاموه على ذلك وقالوا له : أنت إمام الناس فى العلم ، ما الذى يبعثك على الوقوف بهذه المواقف الرذيلة ؟ فقال لهم : لو علمتم ما أعلم لما لمتم ، ولطالما استفدت من هؤلاء الجهال فوائد كثيرة ، تجرى فى ضمن هذيانهم معان غريبة لطيفة ولو أردت أنا أو غيرى أن نأتى بمثلها لما استطعنا ذلك .

(٣) قال ابن خلدون فى كتاب العبر : و « الكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العصر وخصوصاً علم اللسان ، يستنكر هذه الفنون التى لهم (للأدباء الشعبيين) إذا سمعها ، ويمج نظمهم إذا أنشد ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها »

ويعلل ابن خلدون هذا الاستنكار بأن المنكر لهذه الفنون يفتقد الملكة فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إذا كان سليما من الآفات فى نظرته ونظره ، وإلا فالإعراب لا مدخل له فى البلاغة ، وإنما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود ، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول ، أو بالعكس وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو فى لغتهم هذه ، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة ، فإذا عرف اصطلاح فى لغة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا

طابقت الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك :

وسيرى القارئ أنى فى كتابتى هذه القصص ومعالجتى لمادتها — قد تلافيت ماوجه إلى الأدب الشعبي وعيب به ، سواء من ناحية المضمون أو من ناحية الشكل اللغوى.

عباس خضر

- ١ -

تناول كتاب « ينبوع الحكمة » وشرع يقرأ . . . لقد هجر هذه القراءة مدة طويلة وقعت فيها أحداث صرفته عن كتابه المحبوب الذى يعده أثمن شىء ، فقد حوى كثيراً من المعارف وقد صار به من ذوى المعرفة والحكمة ، حتى فاق أستاذه « عقبة » فى العلم وسعة الحيلة .

وكان منذ أن حصل على « ينبوع الحكمة » عاكفاً على القراءة وتحصيل العلوم والمعارف ، كسولا فيما عدا ذلك ، لا يهتم بأى عمل آخر ، حتى أطلق عليه لقب « البطـّال » ولم يظهر منه أى ميل للفروسية والقتال ؛ برغم أن أباه القائد الفارس قيد اسمه فى سجل الجيش المحارب .

حتى إذا قامت الحرب بين العرب والروم دعاه أبوه إلى الجهاد . . إنه يخاف من خياله . . قال له أبوه :

ـ يامحمد ، أنت تعلم أنى كتبت اسمك فى ديوان المجاهدين ، ولابد من خروجك للقتال . .

فبكى محمد وقال لأبيه :

ـ ياأبت ، هل قلت لك اكتب أسمى فى الديوان ؟ إنى لا أستطيع ركوب حمار فضلاً عن جواد . . وما اعتادت يدى على سيف أو رمح . .

ـ ياأشأم الأولاد أليست لك أسوة بهؤلاء المجاهدين الذين جاءوا من كل فج ، وقد باعوا أنفسهم لله ؟

قال بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه :

ـ ولم لا تكون الأسوة بغير المحاربين؟

ـ ياولدى ، لا تكن عاراً علينا ، كيف يقال إن لى ولداً ضعيفاً جباناً قد قعد مع القاعدين ؟

ثم أراد أن يغريه ويطمئنه فقال :

– لن أدعك تباشر حرباً ولا قتالا ، بل أركبك الجواد ولا تبرح عنك عيني ، وإذا رأيت خطراً عليك أخذتك ونجوت بك .

فقال مستسلماً :

– يا أبت ، افعل ما تراه ، فهأنذا مطيع لك ، والله يتولانى برحمته .

وفى المعركة وقف بعيداً ، يشهد القتال فترتعد فرائصه وتصطك أسنانه ، ويود – لولا الخوف من أبيه – أن يلوذ بالفرار .

وبينما هو كذلك إذا سهم طائش يمر قريباً منه ويغوص فى الأرض ، فكاد يموت من الهلع والذعر ، وسقط من فوق الحصان بجوار موضع السهم ، وتلفت حوله يريد أن يهرب إلى مكان يأمن فيه على نفسه ، ولكنه تسمر فى مكانه عندما رأى السهم يتحرك فى الأرض ، ويستمر فى الحركة ... فدنا منه وقد ذهب الخوف من نفسه وحلت محله الرغبة فى كشف السر ... أمسك بالسهم وجذبه بكلتا يديه ، فاستعصى عليه ، فأخرج السيف الذى معه ، وحفر حول السهم ، وهاله النظر ... ثعبان ... قد غرس فيه السهم ودمه يسيل ... وشعر بجرأة لا عهد له بها ... أمسك بالثعبان الدامى ، وجعل يقلبه ويقول : سبحان الله ... هذا الثعبان المختفى فى باطن الأرض ينفذ إليه السهم فيرديه ونحن على ظهر الأرض مستهدفون للسهام فلا يصيبنا سوء ..

وبينما هو واقف هكذا يحدث نفسه رأى جواداً يعدو وليس على ظهره أحد ، فأحس بدافع قوى يدفعه إليه ... فاعترض طريقه وفى لحظة خاطفة كان على ظهره وقد جرد سيفه وحمل على الروم مع الحاملين عليهم من قومه .

وقال له أبوه بعد المعركة :

– كم أنا فخور بك ... هذا يوم ميلادك .

مر ذلك بخاطره ، كما مرت صوراً أخرى أعقبت ذلك من خوض مغامرات كان سلاحه فيها الحيلة والشجاعة ، وكانت نتيجتها انتصار العرب بقيادة الأميرة « ذات الهمة » وولدها البطل « عبد الوهاب » الذى اتخذه – منذ تلك المغامرات – أخاً له وصديقاً حميماً .

مرت تلك الصور بخاطره وهو يتناول كتاب « ينبوع الحكمة » ليقرأ فيه عن بلاد الروم ومواقعها وأحوالها وعن المسيحية والرهبان والقساوسة ، وقد سبق أن قرأ ذلك ، ولكنه اليوم وهو بصدد مغامرة جديدة خطيرة يريد أن يجدد معلوماته ويستزيد ...

* * *

جاء بنو كلاب وبنو سليم من بادية الحجاز إلى ثغور بلاد العرب على بحر الروم للدفاع عن حدود الدولة العربية وصد غارات ملوك الروم عليها وغزوهم فى ديارهم ، وطابت لهم الإقامة فى مدينة « ملطية » التى استولوا عليها من الروم بعد أن قتلوا حاكمتها الأميرة ملطية بنت الملك التى بنت المدينة وسمتها باسمها .

كان على رأس بنى كلاب الفارسة الشجاعة فاطمة بنت مظلوم الملقبة بذات الهمة وهى التى قتلت ملطية فى الدفاع عن الثغور العربية ، ومعها ولدها « عبد الوهاب » الذى أنكر أبوه « الحارث بن ظالم » نسبه إليه لسواد لونه . وكان على رأس بنى سليم أميرهم عبد الله بن مروان ، وكان له دور فى محاولة الصلح بين ذات الهمة وبين زوجها وابن عمها الحارث وإثبات نسب الطفل الأسود وتبرئة أمه من التهمة الشنيعة ، واستمر سعى عبد الله فى ذلك حتى اتصل الأمر بالخليفة فى بغداد ، وحكم بثبوت النسب ، ولكن الأب لم يرضخ للحكم وتمرد على الدولة هو وأبوه « ظالم » ولجآ ومن معهما إلى العدو : ملك الروم فى القسطنطينية وحاربوا معه قومهم .. إلى أن كانت المعركة التى خاضها « محمد البطال » بحيله وشجاعته إلى جانب الفرسان الصناديد من بنى كلاب وبنى سليم ، وكان من نتائجها القضاء على الخيانة وقتل الحارث وظالم ومن انضم معهما إلى أعداء العرب .

* * *

لم يتحدث محمد البطال إلى أحد بعزمه على المغامرة الجديدة الخطيرة ، فقد اعتاد أن يقوم بالمغامرات دون أن يطلع أحداً حتى ترى نتائجها ،

فهو لو تحدث عنها قبل القيام بها لاتهم بالجنون ولما اقتنع من يحدثه بأن المشروع يمكن تحقيقه أو حتى يدخل فى حدود العقل ...

من يصدقه ، بل من لا يتهمه بالجنون ، إذ قال إنه يستعد ويدبر خطة للرحيل وحده فى زى راهب إلى القسطنطينية ليسترد « القنديل » من قصر ملك الروم .

ومن يصدقه إذا قال إن الذى أخذ القنديل وأرسله إلى ملك الروم .. هو « القاضى عقبة » فقيه البلد الذى يثق به الناس وخاصة الخليفة والأمير عمرو بن عبد الله الذى حل محل أبيه عبد الله بن مروان فى الإمارة على ملطية بعد وفاته ؟

كان اختفاء القنديل حادثاً له دلالته الخطيرة فى نظر البطال بعد أن علم كيف أخذ ومن دبر له وما وراء ذلك مما ستكشف عنه الحوادث ...
أما القنديل نفسه فإنه وإن كان عجيب الصنع وتحفة عصره فقد كان يمكن أن تكون سرقته أمراً عادياً ...

على أثر صلح مضى ، بين العرب وملك الروم ، طلب الملك أن يرد إليه القنديل ، ولكن طلبه لم يجب ، إذ كان القنديل قد علق فى مسجد ملطية وعز على المسلمين أن ينزعوه منه . وكانت ملطية بنت الملك حينما أنشأت هذه المدينة وأقامت بها قد استهدت القنديل من أبيها وعلقته فى قصرها ، فلما قتلتها ذات الهمة وأخذ العرب المدينة رأوا أن يضعوا القنديل فى المسجد ، وأبى كل من أمرائهم أن يستأثر به ، وظل بالمسجد إلى أن تراكمت عليه الأتربة ، فحجبت نوره الساطع ، فأخذه عبد الوهاب إلى داره لتنظيفه وإصلاحه ، ولكنه انشغل عنه بأحداث المعركة الأخيرة ، فظل فى الدار حتى سرق :

وكان ملك الروم يعتز بقنديله ويتفاءل به ، ولولا حبه لابنته ما أعطاه لها : كان قد جمع أمهر الصناع فى القسطنطينية ، وأمرهم أن يصنعوا له شيئاً فريداً لا يوجد مثله عند أحد من الملوك ، فصنعوا له هذا القنديل بحيث

توضع فيه ثلاثمائة وست وستون فتيلة بعدد أيام السنة لكل منها نور لا يشابه الآخر ، فإذا أشعل فإنه يجعل الليل كالنهار .. فأمر الملك بتعليقه فى قلعة العرش فوق رأسه .

- ٢ -

قال البطال لعبد الوهاب وقد أنبأه بسرقة القنديل من داره :

– من كان يدخل إلى موضعه من غير أهل البيت ؟

تذكر عبد الوهاب جارية كان قد اشتراها ، وأقامت فى داره عدة أيام ، ثم ظهرت عليها علامات الجنون ، فردها إلى البائع . قال :

– ما دخل دارنا غريب إلا الجارية « نرجس » .

– وأين هى ؟

– لما كانت عندنا لاحظنا أنها تتكلم كلاماً غير لائق ، وتشتم الناس وتلعن والديها ، وتقطع ثيابها ، فأرسلتها إلى الدلال وأمرته أن يردها إلى صاحبها .

– ألا تعلم من صاحبها ؟

– لم أهتم بالسؤال عنه .

– إننى أشك فى أمر هذه المرأة ، وما أظن إلا أنها مدسوسة . ولابد من البحث عنها .

– لعلها أرسلت إلى دار المجانين ببغداد لمعالجتها .

– لا ، إنها ليست مجنونة .

– ماذا تعنى ؟

– قلت إنها مدسوسة ، والأمر مدبر ...

– أفصح ، ماذا تريد أن تقول ؟

– ما هذا إلا شغل عقبة .

صاح عبد الوهاب مندهشاً :

– عقبة ؟ ؟

ـ إنه أستاذى ، وأنا أدرى بألاعيبه ...

وفى هذه اللحظة دخلت « ذات الهمة » فوقفا لها وسلما عليها ، وجلست وبادرتهما بالكلام :

ـ فيم تتحدثان ؟ وما شأن عقبة ؟

حكى لها ولدها عبد الوهاب ما وقع وما دار بينه وبين البطال من حديث ، إلى أن قال لها إنه يتهم عقبة . فقالت :

ـ هذا المنافق لا أستكثر عليه شيئاً .

والتفتت إلى البطال قائلة :

ـ ولكن ماذا يصنع هذا الرجل بالقنديل ؟

ـ لقد علمت من جواسيسى أن له صلة بملك الروم ...

ـ لعقبة القاضى الفقيه ... صلة بالأعداء ...

ـ نعم ياأميرة ، واعلمى أنه دبر رحيل ظالم وولده الحارث إلى ملك الروم .

ظهر الغضب على وجه ذات الهمة ، وقالت وهى تضع يدها على مقبض السيف :

ـ ورب الكعبة . . .

ولم تكمل إذ أشار لها عبدالوهاب بيده متلطفا قائلا :

ـ اهدئى ياأماه ، لاتنفعلى ، فالأمر يحتاج إلى الروية .

فقالت :

ـ لابد من قتله ، لقد تحملنا نفاقه وإيقاعه بيننا بالخصومة والعداوة أما وقد وصل الأمر به إلى الخيانة فلابد أن نتخلص منه . لقد قتلت أباك ياولدى لأنه خان قومه ودينه .

ـ ياأماه ، لقد كان أبى عدوا ظاهراً ، أما هذا فهو عدو مستتر ..

ـ هذا أخطر من ذاك

ـ نعم ، ولكن لاتنسى أن برهان إدانته ليس قاطعاً ، وهو رجل داهية يغطى خيانته بنفاقه ، ولا تنسى كذلك أنه من بنى سليم منافسى بنى كلاب

على الإمارة من قديم الزمان ، ومن ورائه عمرو بن عبدالله وقومه ، والخليفة الذى تنطلى عليه حيله ، وينخدع بتظاهره بالتقوى والعبادة ...

قالت ذات الهمة فى حسرة :

— ياربى ، هل جاهدنا وذهبت أرواح الشهداء لأجل أن يحمى حكامنا المنافقين والخائنين . . .

وسلت سيفها فى هدوء حزين ونظرت إليه كأنها تناجيه :

— لطالما حسمت الأمور وقاومت أهل الشرور ، وما عجزت قط عن عدو سافر ، أما المتسلحون بالنفاق فيؤسفنى أنك عاجز عنهم ..

قال محمد البطال :

— لا تحزنى ياأميرة ، سأدبر الأمر بطريقتى وسترين ما أفعل ..

* * *

راح البطال يبحث ويتحرى ، فعلم أن الجارية «نرجس» على علاقة بمصعب بن عقبة وأن هذا يقصد إلى مكانها ليلا حيث يجدها ساهرة فى انتظاره بعد أن ينام جميع من فى الدار . . . وعلم كذلك أن مصعبا أرسله أبوه فى سفر طويل ، ولا يعرف أحد إلى أين بعث به ..

وجعل البطال يدور حول دار عقبة ، يتلمس منفذا إلى الجارية فى الخفاء ، ويتعرف مكان نومها ، حتى كان ذات مساء ، وقد خلت الطريق وهجع الناس فتلمس حائطا قصيراً ، وقفز حتى كان فى فناء الدار إزاء نافذة عرف أن الجارية وراءها ، ودق باب النافذة دقاً خفيفاً . . وما لبث أن جاءه صوتها هامساً ناعماً . . إذ ظنته مصعباً عاد من السفر :

— من الطارق ؟

وأزاحت باب النافذة قليلا ، وأطلت وحدقت فى الظلام . . . فأسرع البطال يقول لها قبل أن تكشفه وتذعر :

— لاتخافى يانرجس . . أنا محمد البطال .

وكان ذكر اسم « محمد البطال » يبعث إلى النفوس الوجل والارتياح

معاً . . لما اشتهر عنه من المغامرات والحيل التى لا توقع الشر والأذى إلا بأهل الفساد . .

وقد ذعرت الجارية ، ولكن صوته الحانى وطمأنته لها أسكنا روعها . .

قالت وهى تحاول أن تخفى ذعرها :

ـ ماذا تريد ياسيدى ؟ ولماذا جئت فى ظلام الليل ؟

وجعل البطال يلاطفها ويغريها حتى تبوح له بسر القنديل . ووجدت هى الفرصة سانحة لما يعتمل فى نفسها من الغيظ والكراهية لسيدها عقبة الذى ماطلها فى إنجاز وعده إياها بأن يزوجها من ابنه إذا نفذت الخطة التى رسمها لها كى تسرق القنديل من دار عبد الوهاب . بل هى لاتستبعد أن يحاول التخلص منها بأية وسيلة . .

قالت نرجس :

ـ إنى خائفة . . خذنى إلى سيدى عبدالوهاب . . لاأريد أن أخدم غيره ، أريد أن أقبل الأرض بين يديه ندما على ما فعلت . . لقد كرهت هذا الرجل المسمى عقبة ، وكرهت ابنه ، خذنى ياسيدى ولا تدعنى هنا ، وسأقول لكم كل شيء ، فأخذها البطال وألبسها عباءته وسار بها فى الظلام .

* * *

حكت الجارية أن القاضى عقبة قال لها :

ـ أتريدين أن أزوجك بولدى مصعب ؟

فسكتت حياء ، فتابع قوله :

ـ أنا أعلم أنك تحبينه ، ولا بأس عليك ، فسأزوجك منه على شرط أن تنفذى ما آمرك به .

ـ إنى خادمتك المطيعة يا سيدى . . .

ـ أريد أن تأتى لى بقنديل المسجد الذى بدار عبد الوهاب .

ـ وكيف الوصول إليه وهو خلف الأبواب ؟

ـ اسمعى جيداً ما أقول ، سأعطيك للدلال ، وآمره أن يعرضك على عبد الوهاب كى يشتريك ، وعبد الوهاب إذا رأى حسنك وظرفك فلن

يتردد فى شرائك .. وعندما تحويك داره تستطيعين أن تعرفى موضع القناديل ، وسأرسل إليك امرأة عجوزاً فى صورة شحاذة معها سلة كبيرة تضع فيها ما يجود به المحسنون عليها ، وفى غفلة ممن فى الدار تأخذين القناديل وتضعينه فى سلة العجوز ، وتغطينه بشىء يخفيه عن العيون .

— وبعد ذلك يا سيدى .. هل أبقى هناك ؟

— بعد ذلك أظهرى الجنون .. مزقى ثيابك .. انفشى شعرك .. سبّى والعنى ... انطقى بألفاظ قبيحة ..

— وبعد ذلك ؟

— سيستدعى عبد الوهاب الدلال ويأمره بردك إلى صاحبك ، وسآمر الدلال ألا يقول إنك من عندى . فقالت بنغمة رجاء لم تخف على فطنة الشيخ :

— وبعد ذلك يا سيدى القاضى ؟

— بعد ذلك تصيرين زوجة مصعب . وتكونين عندى فى أعز مكان .. ونفذت الخطة كما رسمها القاضى الحصيف ..

* * *

سأل البطال الجارية :

— أتعرفين أين وضع عقبة القناديل ؟

— إنه ليس الآن فى الدار ، فقد أخذه مصعب ورحل ، ولا أدرى إلى أين ...

- ٣ -

لم يضع محمد البطال وقتاً ، فقد أرسل غلامه « لؤلؤة » فى أثر « مصعب » ، وكان هذا قد سبق لؤلؤة فى الطريق بعدة أيام ، ولكن الغلام المدرب على يد سيده وأستاذه جعل يتعقب الأثر ، حتى وصل إلى راهب منقطع للعبادة فى صومعته ، وتحدث معه ، فعرف منه أن مصعباً مر به ونزل بجواره بعض الوقت للراحة ثم استأنف المسير نحو القسطنطينية .. ومعه شىء ملفوف يحرص عليه ويحمله أمامه على البغلة التى يركبها بعناية .

وعاد لؤلؤة إلى سيده بهذه الأخبار .

لم يعد هناك شك فى أن القناديل مرسل إلى القسطنطينية ، وأن عقبة أراد أن يتقرب إلى ملكها وينال الحظوة لديه . .

وجاء دورك يا بطال ، وقل لى يا ولد .. ماذا ستفعل ؟ ماذا سأفعل .. سأرحل إلى القسطنطينية . حقاً لم أعرف تلك البلاد بعد ، لم أعرفها بالعيان والمشاهدة ، ولكنى سمعت عنها الكثير وتعلمت لغتها الرومية من أهلها الذين اختلطت بهم ومن أصدقائى الرهبان الذين طالما قضيت معهم أمسيات فى قمم الجبال . وهذا هو كتاب « ينبوع الحكمة » فيه كثير من المعلومات عن بلاد الروم وأوصافها وعادات أهلها . بهذا الكتاب فقت أستاذى عقبة وغلبته ... كان يسأل فى مجلسه عن مسائل فى العلوم . فيتلجلج ، ويرانى أسرع منه إلى الجواب الصحيح ، فيتعجب ويقول لى بينى وبينه : من أين لك هذا يا ابن الجن ؟؟ إنه يعلم فيما بينه وبين نفسه من أين أستقى هذا العلم ، وأنى حصلت على « ينبوع الحكمة » الذى كان يتحرق شوقاً إليه ، وكان يدبر لأخذه من صاحبه اليمنى ، ولكنى سبقته بحيلتى ، ليس هذا هو المهم الآن ، إنما المهم أن أستعد للمغامرة . ولكن قل لى يا بطال : لماذا أنت مهتم بالقنديل ؟ نعم أقول لك ... إن عقبة اشتهر أمر نفاقه وإيقاعه بين الناس . ولو أن الأمر اقتصر على ذلك لانحسر أثره فيمن يوقعهم سوء الحظ تحت تأثيره ، ولكن الأمر الخطير الذى لا ينبغى السكوت عليه هو اتصاله الخفى بالأعداء وكيده للعرب وأبطالهم حسداً منه لهم ، إذ يرى الناس يمجدونهم ، وهو يبغى المجد ، ولكنه جبان ، فيريد أن يحققه عن طريق الخيانة .. وهو من بنى سليم الذين يحمونه ويغضبون له وخاصة أميرهم عمرو بن عبد الله ، والأدهى من ذلك أنه استطاع أن يخدع الخليفة بتظاهره بالتقوى والصلاح والغيرة على الإسلام والمسلمين ، ويزيف عليه ذلك بأساليب فقهه وملحه ، فيفيض عليه الخليفة بالعطايا ويقربه ويجيبه إلى مطالبه ويعاقب من يسىء إليه ، ولولا هؤلاء الذين يحمونه لحسم أمره بضربة سيف منى أو من عبد الوهاب أو من ذات الهمة ، وما القنديل إلا وسيلة إلى كشفه وإثبات خيانته .

كان محمد البطال يحدث نفسه بذلك وهو يستعد للرحلة الخفية إلى القسطنطينية ، تزيًّا بزى راهب ، لبس طيلسانا أسود ، وركب على ذقنه لحية بيضاء طويلة ، واتخذ عصاً سوداء ، وخرج من ملطية ليلا دون أن يراه أو يعلم به أحد ، وسار يضرب في الأرض والبحر ، يقصد الرهبان فى الصوامع ، فينزل عليهم ويذاكرهم علوم الدين المسيحى كواحد منهم ، وفى البحر يتقرب إلى النوتيين بتلاوة آيات من الإنجيل بصوته الرخيم .. حتى وصل إلى القسطنطينية ، فجعل يجوس خلالها ، ويتحدث إلى أهلها ، ويتعرف معالمها وأحوالها وكبار القوم فيها ، ثم قصد إلى دار البطريق الكبير ، فاستأذن ودخل عليه وقال له :

— يا أبانا ، أنا من رهبان الشام ، جئت أزور بيعة صوفيا لما لها عندنا من المكانة الكبيرة والذكر الرفيع .

فرحب به البطريق وأنزله فى داره .

* * *

استرعى سمع « ميرونة » بنت البطريق صوت رخيم يتلو آيات من الإنجيل أحياناً ، وأحياناً يترنم ببعض الترنيمات الدينية ، وعلمت أن «الراهب» الضيف هو صاحب هذا الصوت .. فجعلت تنصت له ، ثم شعرت بدافع إلى رؤيته وهو يتلو ويترنم .. فاقتربت من حجرته ، وأحس بها ، ثم سكت .. وجعل يسعل سعالا متصلا كأنه شرق .. فأسرعت إليه بكوب من الماء ... ورأى أمامه فتاة ذات حسن وملامح تختلف عمن رآهن فى القسطنطينية من فتيات سافرات كثيرات .. شعر نحوها بألفة لم يشعر بها نحوهن ..

— شكراً لك ياا بنتى وحمداً لله .

نطق ذلك باللغة العربية نطقاً تلقائياً ، ولم يذكر أنه فى بيئة رومية وأن عليه أن يتخاطب بلغة القوم إلا بعد أن أتم عبارته ، فهم أن يستدرك ويعيدها باللغة الرومية ، ولكن الفتاة فاجأته بلغة عربية تشوبها لكنة رومية :

— هل أنت بخير يا أبانا ..؟

فدهش .. وقال لها بصوت أبوى حنون :

ـ اجلسى يا بنية ، من أنت ؟

ـ أنا ميرونة بنت البطريق الكبير . .

ولم يشأ أن يطيل معها فى الحديث ، حتى لا يثير فضوله انتباهها إلى حقيقته ، ولم يعلق أهمية على نطقه فى خطابها بالعربية ، فالمفروض أنه من الشام . . وأما هى فهل تعلمت اللغة العربية ؟ وكيف وأين ولم . . ؟ وهذا الوجه . . وهذه الملامح . . هل هى رومية . . ؟ إن لهذه الفتاة سرا . .

قاوم رغبته الشديدة فى معرفة هذا السر ، وترك ذلك لفرص أخرى ، حتى تجرى الأمور بطريقة طبيعية لاتثير الشك .

جعل يفكر فى ميرونة ، وقضى شطرا من الليل فى هذا التفكير يتقلب فى فراشه . ممن تعلمت اللغة العربية ؟ أمن أبيها ؟ لا يبدو أنه يعرف العربية أمن أحد من العرب نزل عندهم . . ؟ قس من الشام مثلا ؟ قس حقيقى ولكن لماذا يعلمها لغة العرب ؟ نفرض أنها تعلمتها لسبب ما . . طيب . . وهذه الملامح . . وهذا الشكل . . هذا الوجه المستطيل قليلا .. والبشرة القمحية التى تختلف عن بياض الروم . . والتى أنضجتها شمس حارة كما ينضج الفرن الرغيف . . وأخيراً هذا الدم الذى ينطق بالعربية كما نطق اللسان . . كل هذا من أين ؟ هل يمكن أن يكون أصل أبيها أو جدها من الشام ؟ ولكن أباها ليس فيه شىء من تلك الصفات . . إنه رومى خالص . . وحسبه هذا الأنف ونام . . ونفسه تحدثه أن ميرونة أول خطوة فى طريق النجاح فى مهمته . .

* * *

نعم . كان لا بد أن يكون كذلك ، كان لا بد أن تكون ميرونة عربية الأصل ، فقد حدثته بكل شىء بكل ما تذكره عن أصلها العربى وهى طفلة صغيرة لم يكتمل وعيها . .

استدرجها فى الكلام ، وكشف لها نفسه شيئا فشيئا حتى تطمئن إليه وتقول له كل شىء . . أخذها الروم فى إحدى المرات التى هاجموا فيها الثغور العربية ، ورآها البطريق وهو فى مجلس الملك حيث كان يعرض الأسرى

والسبايا ، فرق لها قلبه ، وطلبها من الملك ، وتبناها . . . وهو يعطف عليها ويرعاها كأنها ابنته حقيقة ، ولا يعرف أنها متبناة إلا القلائل . . وهى تتردد على قصر الملك كوصيفة للملكة . .

قالت ميرونة للبطّال بعد أن عرفت حقيقته :

ـ لقد سمعت عن فارس عربى وبطل عظيم عندكم اسمه « عبد الوهاب »

ـ وماذا عرفت عنه ؟

ـ إن اسمه يردد فى بلاد الروم مقروناً بالخشية والفزع . . وتحكى عن شجاعته وفتكه بجيوش الروم حكايات أشبه بالأساطير .

ـ وهل تخشين وتفزعين من أخباره ؟

ـ كلا ، على العكس . إننى أشعر بالسعادة لذكره ، وإن كنت لا أظهر ذلك أمام الروم . ولا أخفى عنك أننى ـ وإن كنت أحيا هنا حياة طيبة مريحة ـ أحن إلى بلدى العربى الذى أخذت منه صغيرة .

ـ ماذا تذكرين عن بلدك ؟

ـ الواقع أنى لا أذكر إلا أشياء قليلة كأنها حلم بعيد . . ومما أتذكره اسم الأميرة ذات الهمة الذى كان الناس يرددونه بإجلال وتعظيم ، ويروون عنها وقائع وحكايات تشبه ما يروى هنا عن عبدالوهاب وإن كان ذلك بحب ، وهذا بكراهية .

ـ هل تعلمين أن عبدالوهاب هو ابن ذات الهمة ؟

ـ نعم ، فذلك مايقال هنا ، ويقولون كذلك إنه أسود وهى بيضاء ، وكذلك كان أبوه أبيض ، ولهذا يطعن بعض الناس فى نسبه ، ما حقيقة ذلك؟

قص عليها البطال قصة نسب عبدالوهاب وما دار حوله من صراع انتهى بإثبات صحة النسب وبراءة الأم مما رميت به .

سكتت ميرونة قليلا ، ثم قالت وهى ساهمة كأنها تحلم :

ـ إنى أشعر ياأبانا .

ضحك البطال وقال :

ـ لست كذلك .

فابتسمت قائلة : لا

ــ آ . . .نسيت . .

ــ بماذا تشعرين ؟

ــ الواقع أنى أحلم . .

ــ بماذا تحلمين ؟

ــ أحلم بحياة أخرى غير هذه الحياة . . تصور أنى أحياناً أتمنى أن أكون راعية غنم فى بلاد عربية . .

سكت البطال وهو يفكر فى « القنديل » الذى جاء من أجله . .فقالت ميرونة تتابع أحلامها :

ــ وعبدالوهاب . . . .

وصمتت برهة ، فقال لها :

ــ ماله عبدالوهاب ؟ ؟

ــ أتخيله الفارس الذى يخطفنى على حصانه ويذهب بى بعيداً . .

وانتهز البطال هذه الفرصة ليبدأ عمله ، قال :

ــ سيكون ذلك إن شاء الله . .

ــ حقاً ؟ ؟

ــ على أن نعمل . .

ــ ماذا نعمل ؟ على فكرة . . هل تسمح لى أن أسألك لماذا جئت متخفياً هكذا ؟

لم يجد بداً من أن يفضى إليها بأنه يريد الحصول على القنديل . . لأنه سيحتاج إلى معاونتها . .

قالت مشدوهة ؟

ــ القنديل ؟ ؟

ــ نعم ، القنديل .

ــ إنك لاتدرى إلى أى حد يحرص عليه الملك ، وكم فرح لما جاءه به

رسول من العرب . . لقد نقش عليه اسم الرجل الذى أرسله إليه عرفاناً لجميله . .

قال البطال فى نفسه : عظيم . . وهذه علامة تثبت إدانة عقبة . .

ثم قال لها :

– أريد مقابلة الملك كراهب من الرهبان فى بلاد العرب .

صمتت قليلا ، ثم قالت :

سأدبر ذلك .

قالت ميرونة لأبيها البطريق الكبير :

– هلا أخذت معك ضيفنا الراهب إلى مجلس الملك ؟

نظر اليها يستزيدها إيضاحاً ، فقالت :

– إنه يا أبى يرتل الإنجيل والأناشيد بصوت رخيم مؤثر ، فإذا سمعه الملك فإنه يسر ويشكر لك أن هيأت له ذلك ، ثم إن الملك مشغول بحرب العرب ، وقد يجد عند هذا الراهب العربى من الأخبار والمعلومات ما يحب أن يقف عليه .

– حسن يابنتى ، سأفعل .

وفى اليوم التالى صحب محمد البطال « الراهب » البطريق الكبير إلى القصر ، وقدمه البطريق إلى الملك ، فوقف البطال بين يديه يباركه ويدعو له ثم تلا آيات من الإنجيل ، فاستحسن الملك صوته ، وتأثر من وقعه فى نفسه وقال لوزيره :

ماتقول فى هذا الراهب ؟

قال الوزير وقد رأى إعجاب الملك به :

– إنه أعجوبة يامولاى . .

فأمر الملك بأن ينزل الراهب « البطال » فى ضيافته وأن يمنح مايطلب من المال .

فرح البطال بذلك ، ولكنه لم يظهر فرحه ، حتى يبدو فيما يليق به من الزهد والورع ، وقال للملك :

ـ شكرا لك يامولاى ، وجزاك الله خيرا على ماأنعمت به ، وحفظك لأمة المسيح ، وقوى بك كلمته . أما المال يامولاى فلاحاجة لى إليه . . إن الدنيا دنية وطالبها أحقر البرية . .

وفى خلال ذلك تأمل البطال القنديل معلقاً بالسقف فوق رأس الملك . ففرح وود لو يقفز إليه ويضمه إلى صدره كحبيبة غالية . . وقد ذكره بمسجد ملطية وهو يسطع فى جوانبه ، كما أثار فى نفسه عديدا من المشاعر . .

* * *

اعتاد محمد البطال أن يخرج من حجرته ليلا ويتمشى فى ردهات القصر يتاو ويدعو . . فإذا لقيه أحد من الحراس والخدم بادر إليه وقبل يده ، فيدعو له ويمضى فى طريقه .

وفى إحدى الليالى جعل يتمشى كعادته ، وقصد إلى قاعة العرش التى بها القنديل . . فوجد الحارس قائما على بابها يرتعد من البرد ، ودنا منه الحارس وقبل يده ، فأخرج من جيبه فطيرة « قربان » وأعطاها له قائلا : كل هذه تعنك على البرد وتمنحك العافية بإذن الله . . وكان الحارس جائعا فالتهم الفطيرة ، وتركه البطال وراح يستأنف سيره على مهل . . وبعد برهة عاد فوجد الحارس راقداً على الأرض لا يبدى حراكا .من أثر البنج الذى وضعه له فى الفطيرة . . . فحمله وأدخله وراء الباب حتى لا يراه أحد ، وشرع يعمل . . كان القنديل معلقاً بسلسلة تشد فيعلو ، وترخى فيهبط ، فأرخى السلسلة ، وأخرج مبردا وجعل يبردها حتى قطعت . .

وضع البطال القنديل فى غرارة أعدها لذلك وأخفاها تحت ثيابه ، وحمله وهم بالخروج ، وإذا يد تمسك بيده . . فأسرع إلى الخنجر فلمع سنانه فى الظلام وهو يشرعه فجاءه الصوت المباغت :

ـ أمسك يدك . . أنا ميرونة . .

ـ ميرونة ؟ . . جئت ؟ . . شكرا لك . .

ـ هيا اخرج من هنا . .

وأخرجته من باب خلفى قريب من الطريق ::

وفى الصباح المبكر كان البطال يخرج من المدينة فى زى بائع رومى جوال يركب بغلة ، وجد فى السير ::

- ٤ -

لم يكن أحد فى « ملطية » يعلم شيئا عن القنديل وعودته ومكانه إلا ثلاثة : محمد البطال ، وعبدالوهاب ، وذات الهمة : وقد رأوا حفظه وإخفاء أمره إلى الوقت المناسب لإظهاره : وكان من رأى ذات الهمة أن يطبقوا على عقبة فى داره ويقتلوه ، ثم يظهروا القنديل كدليل على خيانته بما نقش عليه مما يدل على أنه هو الذى أعاده إلى ملك الروم : ولكن عبدالوهاب قال : إن هذا سيحدث فتنة لن يستفيد منها إلا الأعداء : فإن بنى سليم وأميرهم عمرو سيغضبون لقتل عقبة ، وتعميهم الحمية له عن أى برهان ، ويستنصرون بالخليفة ، ويقولون له إن بنى كلاب قتلوا القاضى الذى عينته ، ولم يراعوا حرمتك ولا حرمة الخلافة وعلماء الدين ، وعندما يعلم ملك الروم بنشوب الخلاف والنزاع بيننا ينتهز الفرصة ويشن الغارة علينا ::

أما عقبة فقد رابه الأمر واضطرب فكره منذ اختفت الجارية (نرجس) من داره وهى تعلم بأخذ القنديل من دار عبدالوهاب . ورابه كذلك اختفاء البطال من البلد على أثر ذلك ، وأحس أن فى الجو شيئا من تدبير البطال وحيله ثم قرر أن يذهب إلى الحجاز ليحج ، ويسبغ على نفسه مظاهر الصلاح والتقوى وليقل هذا الولد البطال ؛ التلميذ العاق ؛ مايقول ، وليفعل مايشاء ، فلن يصدق القوم كلامه ، بل سيغضبون لتشهيره بقاضيهم وفقيههم الورع التقى :

* * *

رجع عقبة من الحج ، وخرج الناس لاستقباله ، وأقبلوا عليه يقبلون يده وهو يدعو ويتمنى لهم أن يحظوا مثله بزيارة الأماكن المقدسة التى ماكان يريد أن يفارقها ، وما أسعد القاطنين بجوارها ::

وذهب محمد البطال فى جملة من ذهبوا إليه ، وهو يضحك فى نفسه ويسخر من تلك المظاهر ، وقال له عقبة فى لهجة الأستاذ لتلميذه القديم :

ـ ياولد يابطال . . العاقبة لك . . تزور البيت العتيق ، وتنال التوفيق وتغفر لك الذنوب . . .

فقال البطال ساخراً :

ـ جعل الله فعلك مثل قولك . .

ولكن عقبة وجد فرصة الانشغال عن سخرية هذا « الولد » ومراميه بقدوم الأمير عمرو ، فنهض إليه وصافحه وقال له بعد أن جلس قبالته :

ـ ياولدى ياعمرو . . كتب الله فى صحيفتك ما دعوت لك به فى البيت الحرام وعند زمزم والمقام . .

* * *

لايزال فى الجو شيء . . شيء لايخفى على فطنة القاضى . . الناس كلها تحتفى بقدومه من الحج ، وتسعى للسلام عليه ، وتقبل يده ، وتطلب الدعاء ، وتفرح به ، ولكن ذات الهمة الجليلة القدر وولدها عبدالوهاب أسود بنى كلاب . . لم يأتيا للسلام عليه كما أتى الأمير عمرو وغيره من علية القوم هل يتكبران عليه ؟ لا ، ليس الكبر من خلقهما ، هل يحتقرانه ؟ هذه هى المصيبة . . أما ذلك الولد البطال . . الذى علمته فتمرد وحقد على . . وصار يجزى الإحسان بالإساءة . . فهو السبب . سبب كل هذه المصائب ، إنه هو الذى يكشف تدبيرى . . إن تلميحاته ونظراته لا يخفى على ما وراءها لابد أن أتخلص منه ، ذات الهمة وابنها الأسود يسندانه ، لابد من القضاء عليهم جميعاً . . الصبر طيب . . والزمن طويل .

كان ذلك يدور فى نفس عقبة ، وهو ذاهب إلى حيث يجتمع القوم من بنى سليم وبنى كلاب فى الساحة الكبيرة خارج البلد ، يشاهدون ألعاب الصبيان . .

وقف إلى جانب الأمير عمرو برهة ، ثم لمح عبدالوهاب قادما ومعه

البطال . . تغير وجهه لرؤية الأخير ، ولكنه تحامل على نفسه وقصد نحو عبدالوهاب قائلا وهو يمد يده لمصافحته :

ـ أهلا وسهلا ومرحباً بحامى حمى المسلمين وسيد المجاهدين ، أدام الله لك النصر المبين .

فقال له البطال ساخراً :

ـ دعاؤك مقبول ياسيدنا القاضى . .

فقال عقبة وكأنه لم يره إلا بعد أن سمع صوته :

ـ أنت هنا يابطال . . ؟ جزاك الله خيراً ياولدى . .

قال ذلك عقبة وهو لايزال يتحامل على نفسه ويضغط ما يعتمل فيها ، ولكنه شعر بوخزة أليمة عندما رد عليه البطال بقوله :

ـ سمع الله دعاءك حسبما ينطق لسانك . . وجزاك على ما يكنه قلبك ، هذا الولد لا يدع مافيه . له يوم . . الصبر طيب والزمن طويل . .

- ٥ -

كان عبدالوهاب يضحك وهو يستمع إلى حديث عقبة والبطال ، وفجأة كف عن الضحك وظهرت على وجهه علامة الاهتمام ، إذ لمح رجلا من جواسيسه الذين يرسلهم إلى بلاد الروم يستطلعون أخبارهم ـ لمحه يشق طريقه بين المزدحمين فى الساحة قاصداً إليه وعلى وجهه غبار من أثر السفر ، وأسر إليه بكلام :

« ميرونة » بنت البطريق الكبير زوجها ملك الروم من ملك البرغل الذى رآها فى القصر وأحبها ، وهى لهذا الزواج كارهة ، ولكن الملك ضغط عليها وعلى أبيها البطريق حتى يكسب ملك البرغل ويضمن مساعدته فى حرب العرب ، وهو من أشجع الفرسان ، تخافه الملوك ، وتخشى بأسه .

وقد خرجت العروس من القسطنطينية فى موكب فاخر ، وخرج بين يديها ألف من فرسان الروم ، وحمل جهازها والأموال والجواهر المهداة إليها على أربعمائة بغل .

وأسرع عبدالوهاب ، فجهز حملة من بنى كلاب ورجاله السود الأشداء وسارت الحملة فى الطريق إلى القسطنطينية يقودها عبدالوهاب وبصحبته محمد البطال الذى راح يسليه فى الطريق بالحديث عن ميرونة وقصتها التى حكاها له من قبل ، وماقالته عنه ، فيصف له جمالها وشجاعتها إذ تدربت على الفروسية فبرعت فى ضرب السيف وركوب الخيل .

– إنها تقتل بسهام عينيها كما تفتك بسيفها .

وقال عبدالوهاب للبطال بعد أن سمع حديثه عن ميرونة :

– وملك البرغل .. ماذا تعرف عنه ؟

– شاب معروف بالشجاعة ، وقد ذاع صيته فى الحروب ، وهو يوالى زيارة القسطنطينية ويحث ملكها على حرب العرب ، لكى يشترك فى القتال ويأخذ بثأر أبيه الملك السابق الذى قتلته الأميرة ذات الهمة فى إحدى المعارك ببلاد الروم ، وكان من أعداء ملك القسطنطينية .

– الغريب أن هؤلاء الملوك يتنازعون فيما بينهم ويتحاربون ، ولكنهم يتكتلون ويتعاونون على حرب العرب .

- ٦ -

عندما وصل العرب إلى « أرض العيون » ولمحوا موكب « ميرونة » من بعيد .. بدءوا الحملة ، فعلا الصياح ، وثار الغبار ، والتحم الفرسان ، وبينما عبدالوهاب يصول فى المعركة ويجول إذ شاهد أحد رجاله الأشداء مقبلا عليه حائراً مصفر اللون ، فقال له :

– ويحك .. ماذا وراءك ؟

– ورائى الموت الأحمر والأسد الغضنفر ..

قال عبدالوهاب متسائلا فى سخرية :

– أسد غضنفر ... ؟

– نعم ، إنه المقدم عليهم ، فارس ملثم .. لقد كاد يفتك بى لولا أن هجم عليه رجالنا السود .. طمطم ، وغيلم ، وكاره الحياة ، وحامض الحلق ، ومرعب

الخلق ، وطماطم ، وملاطم ، وملاكم ، وشراكم .. أدركهم أيها الأمير .. إنهم حيال بطل ليس كمثله بطل . .

* * *

نظر عبد الوهاب إلى ذلك الفارس الملثم ، فى هيئة غلام مليح القوام خفيف الحركة ، سريع الجولان . . حمل كل منهما على الآخر ، وأخذا فى الإقدام والإحجام ، حتى ابتعدا عن القوم ، وحجبهما الغبار . .

هال الفارس الملثم ، ما رآه من عبد الوهاب وما أبداه من فنون القتال ، فقال له وهو يهادنه :

— ما كنت أظن فى العرب رجلا مثلك إلا الأسود عبدالوهاب . .

— ياغلام ، إذا رأيت الأسود . . . فهل تعرفه ؟

— لا ، لأنى ما رأيته قط ، وقد سمعت به ، وأتمنى أن أراه .

— أنا هو ياغلام . . أنا أسود بنى كلاب . .

— أهلا وسهلا . . ماأسعدنى بلقائك . . دونك السيف ياأسود بنى كلاب

دهش عبدالوهاب ، وحار بين كلام الفارس ورنة صوته الساخرة ، وشعر بأن فى الأمر شيئا غير عادى . .

ولكن الفارس لم يمهله ، واستدار قائلا :

— أمهلنى حتى أتخفف من الزرد الذى يثقل على جسمى . .

افعل ما شئت . .

ثم أقبل الفارس بوجه سافر كالقمر ، واعتلى صهوة جواده بقوام رشيق وأرسل نظرة قاتلة إلى عبدالوهاب . . وبدت على عبد الوهاب علامات الانبهار . .ولحظ الفارس ذلك فقال وهو فى نشوة انتصار :

— أيها البطل المعروف ، والفارس الموصوف . . أما تستحى أن تكون فارس الزمان وأوحد الشجعان ، ويأخذك التعب من ربات الحجال ؟

* * *

كان محمد البطال يرقب الفارسين من بعيد ، ورابه الأمر وهو يرى عبدالوهاب يكف عن الصيال ويتراخى فى القتال .. فأسرع نحوهما ، ونظر إلى كل منهما متعجبا .. وقال لعبد الوهاب :

— ماهذه المحاورة ؟

قال عبد الوهاب وهو يغمد سيفه :

اسمع يابطال ، قد شعرت بالانعطاف نحو هذا .. هذه .. الفارسة ..

وسكت ، ولم يتكلم البطال هو أيضاً ، ولكن ابتسامة على وجهه افصحت عما يريد أن يقوله :

— ولم لا تهجم ؟ كيف تتركها ؟

— اسمع يابطال ..

— إنى سامع ..

— إننى أستحى أن أقاتل من أجل الحصول على امرأة . .

واتسعت الابتسامة المعبرة على وجه البطال .. فصاح به عبدالوهاب كأنه يوبخه :

— أما تفهم ؟

— فاهم

— لقد كنت أقاتل لوجه الله -

فقال البطال وهو يشير إلى الفارسة الواقفة المتحدية :

— وهذا الوجه .. ألا يستحق القتال ؟

* * *

كانت الحوادث تجرى بسرعة ، لم تمهل عبد الوهاب كى يفكر طويلا فى هذا الموقف الذى أحرجه وحيره .. وكان السؤال السريع الذى وجهه إلى نفسه ولم يستطع أن يحدد جوابه .. هو : لماذا يحجم عن مقاتلة هذه الفتاة الرومية .. ؟ ألأنها امرأة فليست أهلا لقتاله ؟ كلا ، فأمه (ذات الهمة) بزت الأبطال ودوخت الفرسان ؟ ألأنها فاتنة ساحرة بهرته بجمالها وضن

على الموت بها ... ؟ لا يدرى ... ألأنه أحس رغبته الشخصية فيها وأنه إنما يقاتل لما هو أسمى من الرغبات الشخصية ، فخجل من نفسه كما قال للبطال ؟ إنه فى الحقيقة حائر ...

ثم من تكون هذه الفتاة ؟

ولم تطل حيرته ... إذ رأى فارسا يرخى عمامة على وجهه ، يخرج من صفوف بنى كلاب ، ويعدو بفرسه ، ويثير حوله ووراءه سحابة من الغبار ، متجها إلى الفارسة التى لا تزال واقفة تشهر السيف ... ويلتحم الفارسان ويكاد الغبار يحجبهما عن الأنظار ، ثم يتبين عبد الوهاب مايحدث بينهما من خلال الغبار ، فيرى الفارس المقنع بالعمامة يقبض على ذراع الفتاة ويهزها ثم يقتلعها من سرج الفرس ويأخذها كأنها حمامة فى يده

قال عبدالوهاب للبطـّال :

ـ اذهب فانظر من ذلك الفارس ...

كان البطال يقترب من الفارس وهو يرفع صوته قائلا فى تقدير وتمجيد :

ـ من أنت أيها البطل الصنديد ؟

فالتفت الفارس نحوه :

ـ ماأسرع ما نسيتنى يابطـّال ...

قال الفارس ذلك وهو يزيح العمامة عن وجهه ، فصاح البطـّال :

ـ أميرتنا الجليلة ذات الهمة ؟

وقالت الفتاة الرومية نحمد البطال وهى تبتسم :

ـ وما أسرع ما نسيتنى أنا أيضا يابطال ...

فتأملها قليلا ، وهتف :

ـ ميرونة ... أأنظر بعينى حقيقة ... أم أنا فى حلم ؟

وقالت « ميرونة » :

ـ هذا أسعد يوم فى حياتى ... إذ ألتقى بالأمير عبد الوهاب ... وبالبطلة العظيمة ذات الهمة ...

ثم قال البطال لذات الهمة :
— متى جئت ؟ لقد خرجنا دون أن نعلمك بالأمر إيثارا لراحتك
— وهل تستريح أم يذهب ولدها إلى الحرب ؟
— إن عبدالوهاب لا يخشى عليه . . .
— ولكن قلب الأم . . هو الذى قادنى إلى هذا المكان فى هذه الساعة . .

* * *

كان ذلك يجرى على حين كان الفرسان السود رجال عبدالوهاب ، وفرسان بنى كلاب ، يطاردون جنود الروم الذين كانوا فى صحبة ميرونة ، ويأخذون الأموال التى تركوها وفروا .

وعادت ذات الهمة إلى الخيمة التى ضربت لها ومعها ميرونة تحكى لها قصة حياتها وتحمد الله على أن عادت إلى أصلها العربى .

وبقى عبدالوهاب فى الميدان زائغ النظرات شارد اللب . . وما اختفت ميرونة عن عينه حتى التفت إلى البطال قائلا :

— هذه إذن هى ميرونة التى حدثتنى عنها . .

وفجأة ثار غبار من بعيد .. فقال البطال :

— انظر . .
— ماذا . . ؟ إنه جيش قادم
— يقوده ملك البرغل . .
— ملك البرغل . .
— نعم ، أتظن أنه يتخلى عن عروسه . . ؟
— ويل له . .

ونادى :

— يارجال . . ياأبطال العرب . . استعدوا للعدو القادم . .

وانكشف الغبار عن جيش جرار . .

وتأهب الفريقان واعتدل الصفان..وبرز من عسكر الروم فارس ضخم على جواد أشهب ، وعليه درع أصفر يلمع . فبرز إليه من صفوف العرب فتى صغير على جواد ضامر البطن يمرق كالسهم . . وناداه عبدالوهاب مشفقاً محذراً :

ـ ارجع ياضيغم . . ارجع ياولدى . .

لم يلتفت ضيغم إلى أبيه ، كأنه لم يسمع نداءه . . وحمل على الفارس واشتبك معه فى عراك ، وتطلعت إليهما الأنظار ، وحجبهما الغبار ، وخفقت القلوب ، وانطلقت الكلمات بين إشفاق وإعجاب ، فقال قائل : لقد جازف الولد . . . وقال آخر : ماذا سيصنع المسكين مع ذلك الفيل ؟ وحدق ثالث فى المتحاربين وهو يقول : هذا الشبل من ذاك الأسد . . ثم صاح :

ـ آه . لله درك ياضيغم . . لقد أرداه . . ضربة واحدة على كتفه قطعت الزرد الأصغر . . وخرج سيف ضيغم يلمع من تحت إبط الرجل . . الله أكبر . .

ورددت الأصوات : الله أكبر . . . . .

وقال الرجل الذى كان يتكلم لصاحبه الذى هو بجانبه : إنه تربية البطلين العظيمين . . .

وسأل صاحبه :

ـ من تقصد بالبطلين ؟

ـ أبوه عبدالوهاب وجدته ذات الهمة . .

وأضاف كأنه يلوم صاحبه على بطء فهمه :

ـ وهل هناك غيرهما ؟

وقال صاحبه كأنما ليظهر معرفته :

ـ لقد احتضنته جدته بعد أن فقد أمه ، وتولت رعايته وتدريبه . .

ثم صاح المتكلم الأول :

ـ برز من الروم فارس آخر ، وبرز له ضيغم . . حماك الله ياضيغ .

وصرع ضيغم الفارس الآخر ، فخرج إليه ثالث ، فألحقه بصاحبيه . . فحملت عليه جنود البرغل تريد الفتك به ، فصاحت ذات الهمة فى رجالها ، وكانت قد عادت إلى الميدان ، وحملت على جيش البرغل ، وحمل عبدالوهاب ، ومحمد البطال وباقى الرجال وزاد الطعن والضرب ،

وحمى وطيس الحرب ، وتفرق من أحاطوا بضيغم يريدون النجاة ..

وظل عبدالوهاب يخترق الصفوف ويطيح بالرءوس ، حتى وصل إلى ملك البرغل .. فما رآه هذا حتى استعد له وأسرع إليه يقول :

ـ جئت إلى هلاكك يأيها الأسود ..

ـ دع المحال وخذ فى القتال ..

واشتبك الفارسان ، وتعلقت بهما الأنظار ، وخفقت القلوب .. ورأى عبدالوهاب من شجاعة ملك البرغل ما أذهله ، وتبادلا طعنتين ، كانت طعنة الملك هى السابقة ، فأخلى لها عبد الوهاب الطريق إلى سرج فرسه فقطعته ، ثم اعتدل فى السرج وسدد طعنته إلى خصمه فأطارت رأسه ..

ولما رأى جنود البرغل مقتل ملكهم وهجوم الفرسان السود عليهم تبددوا وجروا فى كل اتجاه يبغون النجاة ..

ـ ٧ ـ

كان القاضى عقبة مع الأمير عمرو فى ديوانه بملطية حينما جاءت الأخبار بقدوم جيش جرار يلوح من بعيد ويسد الأفق بما يثير من غبار ..

كانت أخبار الحملة التى قام بها عبد الوهاب قد انقطعت عن ملطية ، فظن عقبة أن عبدالوهاب ومن معه ، أمعنوا فى السير إلى بعض الجهات النائية فى مغامرات لن ينتهى أمدها قريبا .. فكتب إلى ملك الروم يقول له إن ملطية قد خلت من عبد الوهاب وأمه والبطال والفرسان السود وبنى كلاب ، ولا أحد يعلم إلى أين ذهبوا ، فخذ حذرك منهم ، وإن لم يبلغك عنهم خبر فالفرصة سانحة للهجوم على ثغور العرب ..

ظن عقبة أن الجيش القادم على ملطية هو جيش الروم ، فجعل يحث القوم على الجهاد فى سبيل الله .. ونادى الأمير عمرو بالاستعداد لملاقاة الأعداء ..

وبينما هم كذلك دخل رجل مسرعاً يقول :

ــ ياأمير ، هذئ الرجال ليس القادمون أعداء . .

وقال عقبة فى لهفة وهو يشعر بالخيبة :

ــ ومن هم ؟

ــ الأمير عبدالوهاب والأميرة ذات الهمة ومحمد البطال ومعهم مالايحصى من الغنائم والأموال .

كادت روح عقبة أن تزهق ومرارته أن تنفطر ، ولكنه تمالك وضبط نفسه . .وخرج إلى جانب عمرو للقاء عبدالوهاب . .

نزل عمرو عن جواده ، وكذلك ترجل عبدالوهاب ، وتصافحا وتعانقا ثم أقبل عقبة على عبدالوهاب وصافحه قائلا :

ــ مرحباً بالسيد المسعود ، والأمير المقصود ، وأشجع من قاد الأبطال والجنود . .

وسمعه البطال ، فقال ساخراً :

ــ ولم لا يكون مؤيداً مسعوداً ودعوات القاضى وبركاته تنهال عليه ؟

* * *

خلا عبدالوهاب بميرونة . .كانت تبدو شاردة الذهن ، إذ كانت تفكر فيما آل إليه أمرها . . كانت تعيش فى بيت رجل طيب : البطريق يرعاها ويحنو عليها ويتخذها ابنة له ، وكانت سعادتها المادية موفورة ، ولكن نفسها دائماً قلقة . .تحن إلى بلادها التى نشأت فيها وإلى أصلها العربى وتشعر كأنها طير أخذ من الجو الطليق ووضع فى قفص من ذهب . ولم يكن شىء يسعدها مثل أخبار العرب وأبطالهم وانتصاراتهم فى حروبهم مع الروم ، وكان ذكر عبد الوهاب الأسود العربى الذى يرعب الروم . . يبعث فى نفسها شوقاً لا تعرف إلى أى شىء يتجه . .

وأخيراً أرادوا أن يزوجوها لملك البرغل ، كانت إرادة ملك الروم هى الغالبة فى هذا الزواج ،أراد أن يدفعها ثمنا لتأييده ومساعدته فى حرب العرب . .

وشرعوا فى زفها إليه ، ووجدت خلاصها فى حملة عبدالوهاب على موكب زفافها ، وجدت خلاصها من الأقفاص الذهبية ، ولكن هل تجد حريتها ؟

كان ذلك هو السؤال الذى يقلقها ، هل كتب عليها أن تظل حياتها قلقة ..؟

لقد أحبت عبدالوهاب .. ولكنها تريد أن تحبه وهى حرة ...

وها هى ذى مع عبدالوهاب ، فلتتحفظ حتى ترى ..

— ميرونة ..

— نعم ياسيدى .

— أنا عبدالوهاب أسود بنى كلاب .

— أعرف ذلك ياسيدى .

— لست سيدك .

سكتت حتى تسمع مزيداً من كلامه ، فقال :

— أنت عربية ياميرونة ..

فقالت بفرحة متحفظة متسائلة :

— حقاً ؟ ؟

— أتشكين فى ذلك ؟

— كلا ، ولكن .. ماأنا ؟

— أنت حبيبتى ياميرونة ..

— أنا أمتك ياسيدى .. ألم تأخذنى فى حرب ؟

تضايق قليلا ، ولكنه كتم ضيقه وقال فى حسم :

— لست سبية .. إنما عدت إلى حريتك ..

انطلقت فرحتها ، فسألت متلهفة :

— أحقاً ياسيدى ؟

— لاتقولى سيدى بعد ذلك ..

وخفض صوته قائلاً :

ـ هل تقبليننى زوجاً ؟

ـ ياحبيبى . .

انطلقت من فمها كالزغرودة . .

- ٨ -

لما رأى بنو سليم وأميرهم عمرو والقاضى عقبة . . لما رأوا ما وصل مع بنى كلاب من الأموال والتحف والجواهر والجوارى التى غنموها فى الحرب ثار فيهم الحقد والحسد ، وشرع عقبة يدير الدسائس . .

قال لعمرو :

ـ بلغنى أن أسود بنى كلاب جلب من الروم أموالا كثيرة . .

ـ نعم ، وقد أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى كى أبعث به إلى الخليفة فى بغداد ، ووزع الباقى على رجاله .

ـ ألم تعلم نبأ الجارية التى اختص نفسه بها ؟

ـ بلى ، علمت . .

ـ يقال إنها جميلة فاتنة . .

ـ لابد أنها فتنته فاحتجزها لنفسه . .

ـ لقد عظم أمر هذا الأسود .

سكت عمرو طاوياً نفسه على ما فيها . . فقال عقبة :

ـ والله إنى لا أدرى أيكما الأمير فى هذا البلد . .

واستمر عمرو فى سكوته وقد تغير لونه وبدا عليه أنه يعانى مما يكبت فى نفسه . .

قال عقبة :

ـ اسمع أيها الأمير . . عندى فكرة . .

انتبه عمرو واعتدل فى مجلسه ، إذ أحس أن عقبة يشرع فى تدبير أمر . .

وقال :

- هات ما عندك ياقاضينا . .

- ميرونة . .

- من ميرونة ؟

- اسم الجارية . .

- مالها ؟

- من أولى بها من أمير المؤمنين ؟

- ماذا تقصد ؟

- أعنى أن تكتب إلى الخليفة بأمرها . .

- وماذا أقول له ؟

- اذا كنت موافقاً فإنى أقرأ عليك الكتاب الذى أعددته لهذا الغرض . .

- اقرأ . .

- اسمع ياسيدى :

« أما بعد فإنى أبادر بالكتابة إلى أمير المؤمنين وخليفة المسلمين لأمر لا ينبغى كتمانه ، وهو أن الأمير عبدالوهاب سمع بخبر بنت البطريق (ميرونة) والشروع فى تزويجها لملك البرغل ، فخرج إليها فى العسكر وأسرها ، ولما رأى حسنها وجمالها حجزها لنفسه مع ما استحسنه من الغنائم . هذا والغنائم لاتساوى قلامة ظفر ميرونة . . فإن رأى أمير المؤمنين طلبها من عبد الوهاب فإننا نبلغه الأمر والسلام . . »

وطارت حمامة الزاجل بالرسالة إلى بغداد . . وقرأ الخليفة الرسالة ، ثم استدعى الوزير وأطلعه عليها ، فلمح الوزير ما بدا على الخليفة من الاهتمام بالجارية . . فقال :

- لقد ظهر من عبدالوهاب مالم يكن فى الحسبان . .

- أما كان عليه أن يعرض علينا أمر هذه الجارية ، فإن رأينا أن نكافئه بها فعلنا ، وإلا . .

ولما رأى الوزير الخليفة يتوقف عن الكلام أكمل هو :

- وإلا ضمت إلى القصر ، فأمير المؤمنين أولى بها . .

ــ ولكن .. الا ترى أن عبد الوهاب يدافع عن الثغور ويحمى البلاد من غارات الروم وأن علينا أن نغض الطرف عما يطيب له ويحب أن يأخذه ؟

ــ أنت ياأمير المؤمنين خير من يجازى على الجهاد فى سبيل الله .. والجوارى كثيرات ..

ــ ماذا يقول عمرو فى رسالته عن الجارية ؟

ــ يقول إن الغنائم كلها لا تساوى قلامة ظفر ميرونة ..

ــ ميرونة .. اسمها جميل ، وهى من بنات القسطنطينية ..

ــ بنت البطريق يامولاى ..

ــ حسن .. اكتب إلى عمرو يرسلها ..

ــ هذا هو عين الصواب .. يجب أن يقف عبدالوهاب عند حده .. يجب أن يراعى هيبة الخلافة ..

ــ وقل له إذا توانى عبد الوهاب وماطل فى تسليم الجارية فليقبض عليه ويرسله إلينا ، فإن عجز عن ذلك سرت إليه أنا بنفسى ، وسأعرف كيف أؤدبه ..

سكت الوزير انتظاراً لما يقوله الخليفة بعد أن تهدأ ثورة غضبه .. ثم قال الخليفة :

ــ دع هذا .. اكتب إليه بلطف ومره أن يرسل الجارية .. هكذا فقط دون تهديد ، فإن عصى كان لنا معه أمر آخر ..

* * *

عادت الحمامة بجواب الرسالة إلى عمرو ، فأرسل إلى عقبة وأطلعه عليها ضحك عقبة وقال :

ــ هذا ما توقعته ، ومن هذا كنت خائفاً على عبد الوهاب ...

ــ أما كان ينبغى أن نعرض الأمر على عبد الوهاب قبل أن نكتب إلى الخليفة كنا نقول له : يحسن أن تهدى ميرونة إلى الخليفة ..

ــ لو قلنا له ذلك لعادانا وظن أننا نحسده عليها ..

ــ ما أبصرك بالأمور يا قاضينا .. وأى شىء نعمل الآن ؟

ـ أبلغ عبد الوهاب أمر الخليفة .. لا تدع هذا الأمر يضيع سدى ، يجب أن يراك عبد الوهاب بعين الاعتبار ..

أرسل عمرو كتاب الخليفة إلى عبد الوهاب ، وكان عنده البطّال ، فلما قرأها قطب وعبس وظهر الغضب على وجهه ، فقال البطال :

ـ ماذا هناك يا أبا ضيغم ؟

ـ الخليفة يا سيدى ..

ـ ما له ؟

ـ يريد ميرونة ..

ـ يريد زوجتى يا محمد !

ميرونة .. ؟

ـ هون عليك يا أمير ، والله ما يكون بيننا وبينه إلا السيف ..

ـ هذه هى المصيبة ..

ـ أية مصيبة ؟

ـ أن تقع الفتنة بين المسلمين ، فيفرح بذلك الأعداء ، وينقضون على بلادهم .. كل الانتصارات التى أحرزناها تضيع فى الهباء .. واأسفاه على حرمة أمير المؤمنين ..

ـ ولكن كيف وصل نبأ ميرونة إلى الخليفة بهذه السرعة .. ؟ هذا والله لا يكون إلا من تدبير عقبة .. إنه يريد أن تقع الفتنة فيكتب إلى ملك الروم كى ينتهز الفرصة ويهاجم بلاد العرب ..

وساد الصمت بينهما برهة ، ثم قال البطّال :

ـ الأمر هين ، اكتب إلى الخليفة أنك تزوجتها ، وأنك لولا ذلك ما كنت تتأخر فى إرسالها ..

ـ أتظنه يقتنع بذلك ؟

ـ إن لم يقتنع ، كان هناك تدبير آخر ..

« السلام على الحضرة العلوية ، والسلالة الهاشمية ، والطلعة البهية ، أدام الله على الخافقين فضلك ، ونشر فى المشرق والمغرب علم مجدك ، وأظهر فى الأنام عدلك ، لا زالت سيوفك فى رقاب الأعداء أجمع ، ولا زالت جميع البلدان لك تخضع ، فأنت صاحب الحجة الواضحة والشريعة الصالحة .... »

بهذا دخل القاضى عقبة على الخليفة ، وكان قد رحل إليه برسالة من الأمير عمرو يقول فيها إنه أبلغ عبد الوهاب أمر أمير المؤمنين ، ولكنه تباطأ وتقاعس عن رد الجواب ، وأشاع بين الناس أنه تزوج الجارية كى يسقط الطلب عنه .

وقال عمرو فى الرسالة إنه يبعث إلى أمير المؤمنين بالقاضى عقبة ، كى يشرح له الحال ويكون لديه الجواب على أى سؤال ...

وكان الخليفة قد وصله كتاب عبد الوهاب قبيل وصول عقبة ، فغضب ودخل على زوجته وهو متغير متكدر فسألته فى حديثها معه :

ـ مالى أرى أمير المؤمنين على غير عادته من الصفاء ؟

فحكى لها الحكاية ، فقالت :

ـ لا عليك ... هذا أمر هين : ألم يتزوجها على سنة الله ورسوله ؟

ثم قالت بنغمة ذات معنى :

ـ الجوارى كثيرات ...

ـ ليس ما بنفسى كما تظنين يا امرأة ...

ـ فماذا إذن ؟

ـ حرمة الخلافة وهيبة الخليفة ...

ـ إن ما حدث لم يصل إلى هذا الحد ، ثم إن عبد الوهاب يخاطر بنفسه ويتعرض للمكاره فى الدفاع عن الدولة ، وكذلك أمه ذات الهمة ووقائعها مشهورة ...

وظلت به حتى أعادت الصفاء إلى نفسه ، وكاد ينسى الموضوع لولا قدوم عقبة . .

قال الخليفة لعقبة :

ــ كيف الحال فى ملطية أيها القاضى ؟

ــ كل شىء على ما يرام لولا . .

ــ لولا ماذا ؟

ــ لولا . .

ــ لولا ماذا . . ؟ تكلم . .

ــ لولا غرور عبد الوهاب . . ولكن لا عليك يا أمير المؤمنين . . حقاً إنه يعتز بانتصاراته ، ولكن ما كان يتم له شىء بدون المجاهدين الذين يخلصون له ولكم ويقاتلون فى سبيل الله . .

ــ أتعنى امتناعه عن إرسال الجارية ؟

وعبث القاضى بأصابعه فى لحيته ثم قال :

ــ وأى قدر لهذا الأسود الزنيم حتى يستطيل على أمير المؤمنين ويعصى أمره من أجل شهوات الدنيا وملاذها . .

واختلطت « شهوات الدنيا وملاذها » بعصيان الأمر فى نفس الخليفة . . فهتف :

ــ ويل لأسود بنى كلاب . .

وأراد عقبة أن يضع فى النار مزيداً من الحطب فقال :

ــ لقد ملكت الجارية عليه أمره ، فأعلن أنه لن يسلمها أبداً ولو وصل الأمر إلى أن يجرد السيف فى وجه من يطلبها . .

ــ أيشق عصا الطاعة ؟

ــ لا عليك يا أمير المؤمنين . . لا أظن عبد الوهاب يفعل . . . كل ما هناك

* * *

أن ميرونة فتنته وسلبت لبه .. ولابد أن يعود إلى عقله .. إنه فقط يحتاج إلى تأديب أمير المؤمنين ..

ضغط عقبة على قوله « ميرونة فتنته وسلبت لبه » كأنه يصف الفتاة ويبين إثارتها للمشاعر ..

قال الخليفة :

— ولكن .. قل لى أيها القاضى .. هل تزوجها حقاً ؟

— من يدرى يا مولاى .. لعله أراد أن يتخلص بذلك من طلب أمير المؤمنين لها ..

وعبث القاضى بلحيته مفكراً ثم قال :

— ولكن ذلك لا يحل له ..

وتشبثت نظرة الخليفة بلحية القاضى كأنه وجد عندها حلاً .. وقال :

— كيف ذلك ؟

— إن الجارية سبيت فى الحرب ، فهى ملك لبيت المال ، ولكن عبدالوهاب اختص نفسه بها ، وعرض بقية الغنائم للقسمة ..

— أتعنى أنه تصرف فيما لا يملكه ؟

— هو ذلك يا أمير المؤمنين ..

— ويل له ..

— ولكن أمير المؤمنين خير من يعفو ..

— أتطلب له العفو كى يتمادى فى المعصية .. ؟

— لا يا مولاى ، ولكن أردت ..

— أردت ماذا ؟؟

— أردت تجنب الفتنة ..

— أية فتنة ؟ أفصح أيها الشيخ ..

— يا أمير المؤمنين ، إن عبد الوهاب وقع فى حب ميرونة ..

قال الخليفة غاضباً وبنغمة ساخرة :

– وقع فى حب ميرونة .. عظيم ..

وسكت عقبة .. هل يقول له : وأنت تريدها .... فقد وقعت أنت أيضاً .. ولا بد أن يقع الصدام بينكما .. ؟

ولكنه قال :

– وأمير المؤمنين حريص على مال المسلمين ، فهو يريد أن يضمها إلى بيت المال ..

– حسن ، ثم ماذا ؟ وأين الفتنة ؟

– إن كتبت إلى عمرو ليأخذها منه فإن عبد الوهاب رجل عنيد .. لن يسلمها .. ولن يقدر عليه عمرو .. فسيغضب له بنو كلاب ، وستغضب له أمه ذات الهمة داهية الحروب .. وسيغضب له رجاله السود ، ومن الناحية الأخرى سيغضب بنو سليم لعمرو ، فتقع الفتنة وينشب القتال بين الفريقين ..

– أسير له جيشاً من هنا يقاتله مع بنى سليم ، وإذا لم يقدروا عليه فإنى أسير إليه بنفسى ..

– أيسير أمير المؤمنين بنفسه إلى واحد من رعيته ؟

ولمح عقبة علامات الغضب والحيرة على وجه الخليفة.. فأسرع قائلا :

– ليأذن لى أمير المؤمنين فى إبداء رأى..

– هات ما عندك .. قل ..

– نلجأ إلى الحيلة .. (بعد صمت) تكتب ياأمير المؤمنين كتابين .. أحدهما لعبد الوهاب والآخر لعمرو .. تقول لعبد الوهاب إن الجارية لك ، قد أنعمنا بها عليك جزاء بلائك فى الحرب .. وتبعث بأمرك فى الكتاب الثانى إلى عمرو كى يقبض على عبد الوهاب ويرسله إليك هو والجارية ..

– وكيف يقبض عمرو على عبد الوهاب ؟

– دع هذا لى يا أمير المؤمنين .. سأحتال لتنفيذ الأمر دون أن يقع بينهما صدام ..

أثار اختفاء عقبة من ملطية شك محمد البطّال .. سأل ابنه « مصعبا » عنه، فقال : لا أدرى إلى أين ذهب أبى ، لم يقل لى ولم يخبرنى بوجهته ..

وقال البطّال لعبد الوهاب :

— والله ، إن غيبة هذا المنافق وراءها شىء ..

— ماذا عساه يفعل ؟

— لست أدرى بالضبط ، ولكن قلبى يحس بأنه يدبر شراً .. ؟

صمت عبد الوهاب ثم قال :

— جاءنى الجواسيس بأن ملك الروم يستعد للهجوم علينا ، وقد أرسل إلى ملوك الفرنجة يدعوهم إلى حربنا ويثيرهم بنبأ أسر بنت البطريق الكبير ..

— هذا هو المتوقع ..

ثم أضاف متسائلاً :

— ولكن أين ذهب عقبة الملعون ؟

— أتظنـــه ذهب إلى القسطنطينية يحرض ملك الروم ويدله على أحوالنا .. ؟

— ولم لا يكون قد ذهب إلى بغداد ؟

— إلى بغداد .. ؟

— يحرض الخليفة .. أنسيت أن هذا طلب منك مبرونة ؟

— هذا الاحتمال أخطر من الأول .. فملك الروم سيفى كفيل به ، أما الخليفة فهو ولى الأمر .

وفى ألم قال :

— كيف نحارب الأعداء وقومنا يدبرون لنا السوء .. ؟ (بعد صمت) كنت على وشك أن أطلب جيشاً من بغداد يعيننا على حرب الروم .. أخشى أن يأتى جيش بغداد علينا لا لنا ..

— لم أرك متشائماً مثل اليوم ..

ـ إنى أكثر الناس معرفة بعقبة ، إن غيبته هذه لا تبشر بخير ؟ ؟

وبعد تفكير :

ـ قل لى يا أمير ، ماذا يكون ردك إذا أصر الخليفة على طلب ميرونة ؟

انتفض عبد الوهاب كمن لسع . . ووضع يده على مقبض سيفه :

ـ الجواب عند هذا . .

وصمت برهة ثم قال :

ـ وبأى حق يطلبها الخليفة . .

ـ قد يقال إنها من حق بيت المال . . قد يفتى بذلك القاضى . .

عقبة . . عاودته لسعة الألم فصاح :

ـ ميرونة ليست رقيقة . . إنها عربية حرة . . أخذها الروم ثم عادت إلى أصلها . . والويل لمن يقول بذلك . . ويل للقاضى الآثم .

وبينما هما فى هذا الحديث إذ أقبل حامل البريد برسالة إلى عبد الوهاب وإذا هى من الخليفة . .

ـ ذهبت بنا الظنون إلى بعيد . . الحمد لله . . لن نضطر إلى رفع السيف فى وجه خليفة المسلمين . .

ـ ما الخبر ؟

ـ أمير المؤمنين . . خذ . . اقرأ . .

تناول البطال الرسالة وقرأها ثم قال مجارياً :

ـ الحمد لله . .

لم تذهب من نفسه الوساوس ، ولكنه جارى عبد الوهاب فى استبشاره وهو يقول فى نفسه : فلنصبر حتى تنجلى الأمور .

* * *

دخل عبد الوهاب على ميرونة فى تلك الليلة وهو فى منتهى السعادة ، وأخبرها برسالة الخليفة ، ففرحت هى أيضاً ، وقالت له :

ـ ما حزنت قط مثل حزنى عندما طلبنى الخليفة ، لو كان هذا فى حسبانى كنت فضلت أن أقتل فى المعركة على أن أساق جارية إلى بغداد . .

ـ لن يكون هذا أبدا وبى رمق من الحياة . .

ـ عندما أخذنى الروم كنت طفلة ، ذعرت وبكيت ولكن سرعان ما ذهب خوفى وعادت إلى نفسى السكينة وخاصة بعد أن تعهدنى البطريق بالرعاية واتخذنى ابنة له ، إنه رجل طيب ياعبد الوهاب . .

ـ أحزينة من أجله ؟

ـ إنها عشرة . . لقد شعرت أنه أبى فعلاً ونسيت طفولتى . .

ـ ألا يعوضك عنه الآن شىء . . ؟

ـ ياحبيبى ، أنت لى كل شىء ، لقد أحببتك منذ سمعت عنك ، وازداد حبى لك لما حدثنى عنك البطال فى القسطنطينية عندما جاء لأخذ القنديل .

ـ حدثنى أنا أيضا عنك بعد ما عاد ، شوقنى إليك . .

ـ شوقك فقط ؟

ـ ما كان فى ظنى أن ترضَيْنَ برجل أسود . .

ـ أيها الأسود الحبيب . . ياأسود بنى كلاب . . أنت أجمل من رأت عينى . .

* * *

كانت ذات الهمة تقيم فى قلعة الكواكب القريبة من ملطية ، وقد ضربت لها خيمة بفناء القلعة الفسيح إذ كانت تفضل الإقامة فى الخيام التى تعودت عليها منذ نشأتها فى البادية . وكان يقيم فى القلعة كثير من أبطال بنى كلاب ، وكل الفرسان السود الذين يدينون بالولاء لعبد الوهاب .

و فى صباح تلك الليلة توجه محمد البطال إلى القلعة وزار ذات الهمة ، وحدثها عن الرسالة التى وردت من الخليفة إلى عبد الوهاب ، وقال لهـــا :

ـ والله ، إن قلبى يحدثنى أن وراء هذه الرسالة أمرا . .

قالت باستهانة :

ـ أى أمر ؟ ؟ ؟ لقد تعودنا على الشدائد . . (وهى غاضبة) من هو الخليفة ؟ وأين كان ونحن نناضل الأعداء ؟ والله إن لم يرعو لأؤدبنه بسيفى . . (بعد فترة هدوء) حقا إنه ولى الأمر وطاعته واجبة ، ولكن هذه الطاعة يجب أن يرعاها العدل من ناحيته . . . وولدى جدير بالمكافأة على جهاده وإن كان لا يرجو الجزاء إلا من عند الله .

ـ حق ما تقولين أيتها الأميرة . . . وجهادك فى سبيل الله يعرفه القاصى والدانى ، جزاك الله كل خير . .

ـ اسمع يامحمد . . . اذهب إلى عبد الوهاب ، لازمه فى هذا الظرف ، وراقب الأمور وأخبرنى بما يقع . .

ـ سمعاً وطاعة . .

* * *

قال الأمير عمرو للقاضى عقبة :

ـ ماذا ترى فى هذا الأمر ؟

لحظ القاضى ما ظهر على عمرو وما بدا فى صوته من الخوف والقلق ، فقال فى هدوء ليبعث فى نفسه الطمأنينة :

انتظر إلى الليل . . ثم أرسل رسولا إلى عبدالوهاب يقول له : الأمير عمرو يقول لك إنه قد وصل كتاب من ملك الروم ، فتعال لننظر فيه وننظر فى الرد عليه ؛ لأن الرسول الذى أتى به ينتظر الجواب . وأعد له خمسين فتى من أشداء بنى سليم ، فإذا دخل أحاطوا به . . . وأبلغه رسالة أمير المؤمنين . .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تسيره ليلا إلى بغداد فى حراسة الخمسين فتى . . . وتسرع بذلك قبل أن يصل الخبر إلى رجاله السود وأمه ذات الهمة فى قلعة الكواكب . .

* * *

— ما هذا ياعمرو ؟

قال عبد الوهاب ذلك وقد رأى الغلمان يحيطون به وبأيديهم السيوف .. وكان معه محمد البطال ، فنظر هذا ، فرأى عقبة إلى جانب عمرو ، فقال له ساخراً :

— حمداً لله على السلامة .. أيها القاضى ..

ودفع عمرو برسالة الخليفة إلى عبد الوهاب ، فلما قرأها وعرف ما فيها كاد الشرر يطير من عينيه ... وأسرع عمرو يحاول تهدئته :

— وسأتلطف مع أمير المؤمنين ..

— كى يصفح عنى ..أليس كذلك (إلى عقبة) وأنت أيها القاضى .. ألا تتلطف أنت أيضاً ؟

قال عقبة يتصنع الإخلاص والأسف :

— عزيز على يا أبا ضيغم أن يحدث هذا .. ولكن يد الخلافة لا تطاولها يد ... وانى سأكتب إلى أمير المؤمنين أخوفه من الله فيك ..

فقال البطّال :

— خف أنت من الله يا شيخ ..

والتفت عبد الوهاب إلى البطال وقال ساخراً فى مرارة :

— انظر إلى أصدقائنا المخلصين فى الظاهر والباطن.. (وصمت مفكراً) لم أسمع كلامك ولم آخذ حذرى من المكيدة المدبرة حتى إننى جئت من غير سلاح .. صدقت أن الخليفة أنعم على .. يا لى من أبله .. (وصمت مرة أخرى) إنى دهيت يا بطال ..

— لا بأس عليك يا أبا ضيغم ، سيجعل الله بعد عسر يسراً ..

وقال الأمير عمرو :

— يعز على هذا الحال يا أبا ضيغم ، مالى حيلة .. إنى أنفذ أمر أمير المؤمنين .. وتنهد عبد الوهاب وقال من قلب حسير :

— والله لولا خشيى على وحدة العرب والمسلمين لكان لى شأن آخر من هذا الخليفة ومن ينفذون أوامره ...

ونظر البطال إلى عقبة بطرف خفى وقال :

ـ ومن المنافقين الذين يدسون عنده .. ليمهدوا للأعداء ..

فقال عمرو فى شبه غضب :

ـ احبس لسانك يا بطّال ولا تتطاول على القاضى بالباطل .

فقال البطال فى نغمة تهديد وبصوت خفيض :

ـ سترون العاقبة قريباً .. وسيظهر الحق من الباطل .

وتغافل عقبة متشاغلاً بتخليل لحيته بأصابعه ..

* * *

فكر عبد الوهاب فى موقفه : هل يقاوم ويشق عصا الطاعة ؟ إن عمراً وبنى سليم لايهمه أمرهم ، وعقبة المنافق شفاؤه ضربة تطيح برأسه وتريح الجميع منه .. ولكن ماذا وراء ذلك ؟ الخليفة ؟ سيبعث إليه بجيش يقاتله.. جيش من المسلمين .. يقاتله .. وينتهز الروم الفرصة فيطبقون عليه ويغزون بلاد العرب .. لا ، لن يكون هذا ..

كان يكلم نفسه صامتاً ، ولكن صوته ارتفع بالجملة الأخيرة .. فتطلع إليه صاحبه البطال وقد تركهما القوم جانباً تحت الحراسة حتى يعدوا العدة للرحيل إلى بغداد :

ـ ما هذا الذى لن يكون يا أبا ضيغم ؟

انتبه إلى نفسه وإلى صاحبه ، فابتسم ابتسامة الشجاع فى الموقف العصيب ، وبدت أسنانه بيضاء بين شفتين سوداوين :

ـ كنت أتصور أنّا وقعنا فى قتال مع قومنا .

قال البطال بعد صمت قليل :

ـ أجل ، لا ينبغى أن يكون هذا .. إنها فرصة عقبة .

ـ ......

ـ سيكتب إلى ملك الروم ليهاجمنا ...

— ويسترد ميرونة (وصمت حزيناً) يا لميرونة المسكينة .. الكل يريدونها .
قال البطال فى شبه مزاح :
— ومن تريد هى ؟
بدت الأسنان البيضاء الشجاعة ، وقال صاحبها الأسود وقد استرد وجهه مسحة الحزم والجدة :
— دعنا من هذا .. ماذا ترى فيما نحن فيه ؟ هل ندعهم يسوقوننا كما تساق الإبل ؟
— سنذهب إلى بغداد .
— أعلم هذا ..
— وسنقف أمام الخليفة .
— وهذا أيضاً .
— أما ميرونة فقد صارت زوجتك .
— وفتاوى عقبة ؟
— لن نمهله حتى يفتى ..
— كيف ؟
— أنسيت القنديل .. وما عليه من كتابة تقطع بخيانته ؟
— آ ... حقاً ..
قال عبد الوهاب ذلك وهو يشعر كأن القنديل قد أضاء له الطريق المظلم .

* * *

أعد الأمير عمرو ألف فارس من قومه بنى سليم ليذهبوا بعبد الوهاب والبطال إلى بغداد ، وقد جرد البطال من سيفه وصار أعزل مثل عبد الوهاب .
قال عقبة لعمرو :
— إنى لا آمن أن تلحق بهم ذات الهمة وقومها ، وسود عبدالوهاب .
— الرأى عندى أن يعدلوا عن الطريق المتجه رأساً إلى العراق ، ويتجهوا شمالاً فى طريق الثغور ، حتى يصلوا إلى « آمد » ثم يسيرون منها إلى بغداد .

برزت ذات الهمة من خيمتها فى قلعة الكواكب صائحة على أثر علمها بالخبر :

ـ يا آل كلاب .. يا آل حام ..

فأجابها خمسة آلاف من فرسان بنى كلاب وألفان من السود يتقدمهم : سملق ، ونافع ، وميمون الجماس ..

واعتلت ظهر جوادها ، والقوم من ورائها ، والخيل تصهل ، والوجوه عابسة ، وارتجت مدينة ملطية ، واختفى عقبة .. وفزع إليها عمرو ..

وقالت فى مزيج من الاحتقار والتهديد :

ـ أين ولدى يا عمرو .. ؟

فقال جزعاً متلطفاً :

ـ أيتها الأميرة ، أنا مالى ذنب .. وهذه كتب الخليفة ..

ـ يا عمرو .. والله إن ولدى لا يضيع أبداً ..

والتفتت إلى أصحابها معرضة فى ازدراء عن مواجهة عمرو :

ـ وحق عالم الأسرار ، ومن احتجب عن الأبصار ، لأطلبن ولدى ولو كان فى يد الخليفة ، (بعد صمت) أهذا جزاء المجاهدين .. ؟ ما قولكم يا بنى كلاب ويا رجال عبد الوهاب ؟

تردد زئير الرجال كأنهم أسود فى غابة .. وارتفع صوت يقول :

ـ أرواحنا فداء عبد الوهاب ، ولو أمرتنا أن نخوض البحار خضناها ؛ أو النار ولجناها ..

وقال « سملق » قائد السود :

ـ اعلمى يا أميرة أنه لا حياة لنا بعد أميرنا عبد الوهاب ..

وتقدم منها فتى يمسح دموعه :

ـ أقسم بسيد البشر ، فخر ربيعة ومضر ، إن مس أحد والدى بسوء لأسقينه كأس المنية ولو كان الخليفة نفسه ..

فقالت ذات الهمة :

— تعال يا ضيغم .. ادن منى أقبلك يا ولدى .. كأنى أسمع همهمة عبد الوهاب ..

فحازاها الفتى بجواده حتى كاد الجوادان يلتصقان، وقبلته وهى تغالب دمعها .. ثم نادت بصوت جهدت أن يكون طبيعيًّا جهوريًّا :

— هيا يا رجال ..

وعدت الخيل فى الطريق المعتاد إلى العراق ، وقطعوا مرحلة من الطريق دون أن يتبينوا أثراً للفرسان الذين ساروا بعبد الوهاب والبطال .. فتوقفوا يسألون ويتحرون ... ثم جاءهم نبأ قال قائله لذات الهمة :

— إلى أين المسير يا أميرة .. ؟ لقد ضللكم عمرو وعقبة ، إذ سيروا الرجال نحو الشمال حتى لا تلحقوا بهم ..

— ويل للفاجرين ..

ولمحت على وجه الرجل الذى يحدثها أن عنده كلاماً يتردد قبل أن يفضى به :

— ماذا وراءك يا رجل ؟

قال الرجل وهو يبدى الأسف :

— الأمير عبد الوهاب .. وقع فى يد الروم ..

كانوا سائرين بمحاذاة الشاطىء ، وقد أعياهم السير ، وطاب لهم مع النسيم الذى يهب عليهم من البحر أن يحطوا الرحال كى يستريحوا ، وما كادوا يفعلون حتى طلع عليهم جيش له ضجيج وعجيج تحت أعلام رومية ، فوثب بنو سليم لملاقاته ، واشتبكوا مع الروم فى قتال عنيف ولكن الروم أحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيوف .. وراح عبد الوهاب والبطال ينظران كأن الأمر لا يعنيهما ، فهما أعزلان مغلولا الأيدى ، وقد داخلهما شعور بالارتياح .. قال البطال لعبد الوهاب :

— يوشك بنو سليم أن يهلكوا ..

ـ فليهلكوا لا نجى الله منهم أحداً (وصمت) انظر :: لقد قتل أكثرهم وأسر بعضهم ، ولم ينج بالفرار إلا القليل :

ـ من حفر بئراً لأخيه وقع فيه ::

ـ إن الروم قادمون إلينا :: سيأخذوننا مع الأسرى ، وسيعلمون من نحن ::

ـ لا تحمل هماً يا أبا ضيغم ::

ـ إنى أشعر بشعور غريب :: إننا مع هؤلاء نستطيع أن نقاوم ونفتك بأعدائنا فى الوقت المناسب :: أما هناك :: حيث كنا نقصد :: فليت شعرى ماذا كنا سنفعل لو غدروا بنا ::

ـ كل هذا من فعل عقبة الملعون .. له يوم ..

* * *

غيرت ذات الهمة اتجاهها ، وقصدت إلى بلاد الشام ، وقالت لمن معها :

ـ يا قوم ، قد تطول إقامتنا فى أرض الشام حتى نعرف أخبار عبد الوهاب والبطال ونعمل على خلاصهما ، فلا ينبغى أن يبقى معى إلا من كان بلا زوجة ولا أولاد ،والباقون يعودون إلى ملطية، وينتظرون حتى نحتاج إليهم ..

انفصل القوم ، فسار مع ذات الهمة ألفان من السود بقيادة «سملق» وألفان من بنى كلاب بقيادة « ضيغم » وظلوا سائرين حتى نزلوا بمكان قريب من بلاد الروم يقال له « السويدية » وعاد الباقون إلى ملطية متراخين فى سيرهم كأنهم إبل بلا راع ::

* * *

توالت الأحداث هنا وهناك :: فى ملطية وفى بغداد وفى القسطنطينية :: وطار حمام الزاجل بالرسائل ::::

كتب الأمير عمرو إلى الخليفة بما حدث ، فدعا إلى الجهاد ، وقامت

الدنيا ، ببغداد على قدم وساق ... وإذا الأنباء ترد إليه من خراسان بأن « جرهم بن جرهمان » خرج عليه وأعلن العصيان .

فاضطر الخليفة إلى توجيه القوات التي تجمعت للجهاد إلى خراسان .

وكتب عقبة إلى ملك الروم يقول له : خلت ملطية من عبد الوهاب والبطال وذات الهمة ، وشغل الخليفة بالخارجين عليه في خراسان ، فالبدار إليها .. البدار ..

وكان ملك الروم قد كاتب ملوك الفرنجة كي يتجمعوا لغزو بلاد العرب ، فجاء بعضهم إلى القسطنطينية ، وانتظر ملك الروم حتى يأتوا كلهم ، ثم يتحرك الجمع الكبير إلى الثغور العربية ، وكان ممن حضر « ملك المغلبيط » فلما ورد كتاب عقبة قال لملك القسطنطينية :

— أيها الملك العظيم ، إني أريد أن أذهب برجالي إلى ملطية فأخربها ، وأنا أعرف تلك الجهات معرفة تامة ، فقد كنت في جيش ابنتكم « ماطية » حينما غزت ثغور العرب وأنشأت هذه المدينة وسمتها باسمها .

وكان البطريق الكبير حاضراً ، فلما سمع ذلك أيد ملك المغلبيط ، ثم دنا منه وقال له :

— أيها الملك الهمام ، لي عندك رجاء .

— إني في خدمتك يا أبانا ..

— ابنتي « ميرونة »

— ما شأنها يا أبانا ؟

قص عليه قصة أسرها ، فقال له :

— اطمئن يا أبانا ، سأرسلها إليك بمجرد دخولي ملطية ..

* * *

جاءت الأنباء إلى أمير ملطية « عمرو بن عبد الله بن مروان » بأن جيشاً كبيراً يقترب من البلد .. وخرج القوم ينظرون فرأوا غبار القادمين يسد الأفق ، ويكاد يحيل النهار إلى ليل ... فأمر عمرو بقرع طبول الحرب ، فأقبل

عليه فرسان قومه بنى سليم ، وكذلك لبى دعوة الحرب البقية الباقية بملطية من بنى كلاب ..

اعتلى عمرو جواده وواجه القوم قائلاً :

ـ يا بنى العم ، أريد اليوم أن تبيضوا وجهى عند الخليفة ، فلا يقال إنه ما كان يحمى الثغور إلا عبد الوهاب وبنو كلاب ..

فسرت همهمة وزمجرة فى صفوف بنى كلاب .. وقال أحدهم للآخر ساخراً :

ـ يريد أن نبيض وجهه ..

وقال الآخر :

ـ كأن المسألة عنده ليست إلا أن يرضى عنه الخليفة ..

وا أسفاه على فارسنا الأسود ..

ـ النفاق والرياء هما أصل البلاء ..

وارتفع صوت جرىء من بنى كلاب :

ـ يا عمرو .. عد عن هذا .. وامض بنا إلى القتال ..

* * *

اشتعلت نار الحرب ، واشتد الطعن والضرب ، ورأى بنوسليم كفة الروم راجحة ، فضعفت عزائمهم وأخذوا يتراجعون ، وعمرو يحثهم .. حتى تقدم إليه كبير منهم :

ـ يا عمرو ، إن العدو فى جيش كبير ، ونحن قلة ، وما لنا طاقة بقتاله وجهاً لوجه ..

صاح به عمرو :

ـ ماذا تريد ؟

ـ الصواب أن ندخل البلد ، ونغلق الأبواب ، وندافع من فوق الأسوار ، ثم .. فقاطعه غاضباً :

ـ ثم ماذا .. ؟

— ثم نكتب إلى الخليفة كي يمدنا بجيش :

— الخليفة يا هذا مشغول بالخارجين عليه فى خراسان :

ثم رفع صوته كي يسمع الجميع :

— لابد من مواصلة القتال :

وقال المتقربون إليه وهم يتظاهرون بالحماسة :

— ها نحن أولاء بين يديك ، ولا نبخل بأرواحنا عليك :

وما كاد هذا القائل يتم كلامه حتى ارتعد لما رأى : : فابتعد ونأى ، وجعل يرقب من بعيد ... فارس رومى عليه درع من ذهب يتوهج تحت أشعة الشمس ، وحوله ومن ورائه غلمان لا يحصى عددهم يتمنطقون بمناطق ذهبية وفى أيديهم سيوف مشرعة ::: هجم ذلك الفارس على عمرو ، وعقر جواده ، فسقط به ، وانقض الغلمان على عمرو فأخذوه أسيراً ::: فولى قومه ، والروم من ورائهم يندفعون كالسيل إلى داخل ملطية ::::

• • •

كان أول مافعله ملك المغلبيط عقب دخوله ملطية أن قصد فى جنوده إلى دار عبدالوهاب واقتحمها بعد أن قتل الرجال السود الذين دافعوا عنها وأبوا أن يدخلها الأعداء وهم أحياء ::

ولم تجد « ميرونة » مفراً من الاستسلام ، ورأت من العقل والحكمة أن تطيع الروم وتتظاهر بالرضا والسرور ، فلا فائدة من المقاومة أو المعارضة غير الإيذاء والإذلال ، وعولت فيما بينها وبين نفسها على أن تترك حل مشكلتها للأقدار كامرأة ضائعة لا تملك أمرها :

أما ملك المغلبيط فقد راعه حسن ميرونة وافتتن بجمالها الحزين :: ولكنه كتم مشاعره انتظاراً للفرصة المناسبة ، ورأى أن يوفى بعهده للبطريق الكبير وأن يعمل على كسب رضاه ، فطلب إلى ميرونة أن تتجهز وتستعد للرحيل ، ثم بعث بها إلى القسطنطينية مع كتيبة من أخص رجاله .

جمع ملك الروم ملوك الفرنجة الذين قدموا إلى القسطنطينية كى يسيروا معه إلى بلاد العرب لغزوها ، وقال لهم :

ـ ماذا ترون فى الفارس العربى الأسود وصاحبه البطال ؟

قال الوزير : إنهما شيطانان يامولاى .: عبد الوهاب الأسود قتل أبطالنا وأسر بنت البطريق الكبير ، وصاحبه المسمى بالبطال محتال خطير .: إنه يامولاى هو الذى فتح الأقفال وسرق القنديل . . .

وقال أحد الملوك :

ـ الرأى عندى أيها الملك أن نقتل هذين الرجلين ونستريح من شرهما .

وقال آخر :

ـ ليس هذا بصواب .

قال الملك الأكبر :

ـ ماذا ترى إذن ؟

ـ إننا سنحارب العرب ، وقد يقع أحدنا فى أسرهم ، فإذا كان هذان الرجلان عندنا على قيد الحياة ، استطعنا أن نفدى بهما من يؤسر منا .

واختلف القوم واشتد الحوار بين مؤيدى الرأى الأول وأنصار الثانى . وكان البطريق الكبير حاضراً ، وكان ساكناً طول الوقت . فقال له ملك القسطنطينية :

ـ مالك ساكتاً يا أبانا ؟

ـ وأنصت الجميع إذا رأوا البطريق يهم بالكلام :

ـ أدام الله على الملك النعم الالهية والخيرات السماوية . إنى أرى من الصواب الإبقاء على حياة العربيين .:

وسكت قليلا دون أن يعبأ بالهمهمة المعارضة . ثم أضاف :

ـ ولكى نتقى ما عسى أن يحدث منهما .: تقطع يدا البطال حتى لا يفتح بهما الأقفال . ويقطع إبهام عبد الوهاب حتى لا يتمكن من الضرب بالسيف .

قال الملك :

ـ نعم الرأى يا أبانا ..

وأعدت العدة للقطع .. ثم نادى الملك :

ـ أحضروا العربى الأسود وصاحبه ..

وما لبث المكلف بإحضارهما أن عاد فزعاً :

ـ مولاى الملك ...

وسكت كمن لا يجرؤ على الكلام ..

ـ مالك ويحك .. أين العربيان ؟

ـ لم نجدهما يا مولاى ..

صرخ الملك :

ـ لم تجدوهما .. هربا إذن من السجن ..

قال الوزير :

ـ يا مولاى .. البطال رجل محتال ، إنه شيطان .. إنه لا يعجز عن شىء ..

ـ قلت هذا من قبل أيها الوزير .. وأنت.. أين أنت ؟ وأين الشرطة والحراس ؟

ـ عفواً يا مولاى .. سنبحث عنهما ، ولن يستطيعا الإفلات منا

* * *

جاءت بنات الملوك إلى دار البطريق الكبير لكى يهنئن « ابنته » ميرونة بالسلامة .. وسألنها كيف كان أخذها وخلاصها وما لقيت ورأت فى بلاد العرب ، فأجابتهن بما يناسب الحال ، وحدثتهن عن البطال وما يصنع من الاحتيال مع الناس والأبطال . فقالت ابنة ملك القسطنطينية :

ـ كنت أود أن أراه وأرسم له صورة ..

وقفزت إلى ذهن ميرونة فكرة .. قالت تمهد لتنفيذها :

ـ إنه فى سجن القصر يا أميرة ، وتستطيعين أن ترينه ..

ـ وكيف أراه فى السجن ؟

ــ ما أظن ذلك يصعب على بنت ملك الملوك ، فما عليها إلا أن تأمر والسجان يطيع ..

كانت الفكرة التى خطرت لميرونة هى أن ترى عبد الوهاب فى السجن .. ولم تكن تعلم أن هذه الزيارة ستكون سبباً فى خلاصه ... فقد كان « لؤلؤة » غلام البطال يتجسس بالقسطنطينية فى زى رومى ، وقد تعلم لؤلؤة من أستاذه البطال طرق التخفى والاحتيال . وكان يحوم حول دار البطريق عساه يستطيع الوصول إلى ميرونة .. ورآها مرة فى النافذة ، واسترعى انتباهها أنه يطيل النظر إليها ، فتأملته وعرفته ، وأشارت له خفية ، ودنا من النافذة ، فهمست له أن يأتى ليلا ، وقد خطرت لها بقية الفكرة ..

أحضرت ميرونة للؤلؤة ثياب فتاة .. لما ارتداها صار كأنه إحدى خادمات القصر .. وسار فى ركاب الفتيات ، ودخل معهن السجن ..

استطاع لؤلؤة أن يختبئ فى ركن مظلم ، على حين كانت الفتيات منهمكات فى تأمل الرجلين اللذين ترهبهما الملوك وتخشى بأسهما الجيوش ، وكانت ميرونة تتحاشى أن يلتقى بصرها ببصر عبد الوهاب حتى لا تملك نفسها وتبدر منها بادرة تفضحها أمام الفتيات ..

وخرجن ، وأغلق السجان الباب دون أن يفطن إلى وجود لؤلؤة .. وتقدم هذا من أستاذه البطال وحاول أن يرقق صوته وهو لا يزال فى زى الخادمة ، متظاهراً بالفزع إذ أغلق « عليها » الباب معهما ..

ــ سيدى .. ويحى .. لقد أغلق الرجل الباب ..

ولكن البطّال تفحصه وهتف :

ــ يا ابن الجن ....

والتفت عبد الوهاب مندهشاً وهو يرى لؤلؤة يخلع الثوب النسائى :

ــ من .. ؟

قال البطّال :

ــ إنه لؤلؤة ..

ـ لؤلؤة ... ؟ (ناظراً إلى لؤلؤة) كيف استطعت هذا ؟ إنك عفريت كأستاذك ... ...

لم يضيعوا الوقت ، فك لؤلؤة قيديهما ، وانتظروا حتى تقدم الليل ونامت العيون ، وجعل البطال ولؤلؤة يعالجان قفل الباب ويبردانه بمبرد وأدوات أخرى أعدها لؤلؤة وأخفاها فى طيات ثيابه ، حتى استطاعا أن يفتحاه مجتهدين ألا يحدثا صوتاً ، وخرجوا ...

لم يكونوا يستطيعون الخروج من باب القصر ، لأنه مغلق وحراسه مستيقظون ، وكان هناك سرداب يعرفه البطال وتلميذه لؤلؤة .. يؤدى إلى مرفأ على البحر تقف فيه السفن فاتجهوا إليه وهم يسيرون بحذر شديد وقد خلعوا أحذيتهم ، وأسرعوا إلى سفينة صغيرة ، وساروا فى البحر ثلاثة أيام دون أن يعرفوا لهم وجهة . وفى اليوم الرابع رأوا سفناً قادمة إليهم ، ثم لم تلبث أن أحاطت بهم ، كان فى هذه السفن رجال كثيرون مدججون بالسلاح ، ولا يبدو عليهم ما يدل على المسالمة والأمان ، فاستعد الرجال الثلاثة للدفاع عن أنفسهم ، واشتبكوا معهم فى قتال لم يدم طويلا ، ورأى الثلاثة أن المقاومة عقيمة ، فركاب السفن كثيرون ، ومدربون على القتال فى البحار ، ولم تكن لعبد الوهاب تجربة فى هذا القتال ، فاستسلم هو وصاحباه للقوم ، فأخذوهم وساروا بهم عدة أيام لقوا فيها من الجوع والبرد ما أضنى أجسامهم ، فلم يكن القوم يعطونهم من الطعام والماء إلا ما يمسك رمقهم ، وكانت السماء لا تكف عن المطر فى شكل قطع صغيرة من الثلج .

حتى بلغوا شاطىء جزيرة ، فنزلوا عليه وساروا فى طريق مفروش بالثلج ، على جانبيه تلال تغطيها الثلوج ، وبرغم ذلك تقوم عليها أشجار بعضها محمل بالثمار ، وتمتد جذورها فى أرض هشة بين الصخور .

ساروا فى الجزيرة يصعدون ويهبطون ، حتى وصلوا إلى قصر عظيم معلق فوق جبل صعدوا إليه على سلم حجرى .

وعلم البطال من حديث القوم باللغة الرومية التى يعرفها أن هذا هو قصر

الملك ، كما علم أنهم فى جزيرة الدمروس ، وكان قد قرأ عنها فى كتاب « ينبوع الحكمة » .

وتذكر هذا الكتاب وما حواه من العلوم والمعارف المختلفة وما استفاده منه وخاصة فى علم الطب ، وخطر له خاطر ، نوى أن ينفذه عند مقابلة الملك ، إذ علم أنهم سيقدمونهم إليه .

* * *

قال الملك للثلاثة المأسورين :

- من أين قدمتم وإلى أين تقصدون ؟

وصمتوا .... ثم قطع البطال الصمت :

- أنا يا مولاى طبيب عربى ..

- طبيب عربى .... .

- نعم يا مولاى ...

- ومن هذا الأسود الذى معك ؟

قال الملك ذلك وهو يشير إلى عبد الوهاب ، فقال البطال :

- هذا مساعدى ..

فقال مشيراً إلى لؤلؤة :

- ومن هذا ؟

- خادمى

- مساعدك أسود وخادمك أبيض !

- فى بلادنا من السود من هو أرفع قدراً من البيض ..

- وما الذى جاء بكم إلى هذه البلاد ؟

- علمت أن فى إحدى الكنائس بالقسطنطينية كتاباً فى الطب للحكيم جالينوس ، فشددنا الرحال إليها كى أطلع عليه .

- أليس عندكم كتب فى الطب ؟

- عندنا كثير ، ولكن طالب العلم لا يشبع .

ـ إنى أسألك أيها الحكيم أن تقيم عندنا شهراً (مشيراً إلى عبد الوهاب ولؤلؤة) أنت ومساعدك وخادمك . فإننا سنحتاج إليك .. (بعد صمت) إن زوجتى مريضة وقد حار أطباؤنا فى علاجها ..

ـ إننا فى خدمتكم يا مولاى ....

* * *

قال عبد الوهاب للبطّال مداعباً فى سخرية :

ـ قل لى أيها الطبيب النطاسى .. كيف تعالج زوجة الملك ؟ سترسلها حتما إلى أجدادها فى جهنم ..

قال البطّال فى ثقة :

ـ سأشفيها إن شاء الله .

وبعد صمت قليل قال :

ـ ألا تعلم يا أبا ضيغم أنى عاشرت الأطباء فى بغداد ، وأخذت عنهم ولاحظتهم فى علاجهم للمرضى ؟

قال لؤلؤة :

ـ وعند سيدى كتاب ينبوع الحكمة ، وفيه كثير من الوصفات ، وقد رأيت سيدى فى بغداد يهتم بالبنج وتركيباته .. (وابتسم) .. وإن كان لم يستعمله إلا فى الحيل والخروج من المآزق ..

فضحك عبد الوهاب وقال للبطال :

ـ ولكن مساعدك لا يحسن شيئاً من ذلك .

ـ لا بأس ، والآن هيا استعد أيها المساعد .. قد أقبل الخادم يستدعينا .

* * *

جلس البطال إلى جانب الملك ، ووقف عبد الوهاب ولؤلؤة كما أمرهما .. وجاءوا بزوجة الملك محمولة شبه ميتة ، وأرقدوها برفق أمام الطبيب .. فتأملها برهة وفحصها ، ثم طلب ماء مثلجاً وطستاً كبيراً ، وأمر بتجريد المرأة ..

وجعل يصب الماء المثلج عليها صباً متتابعاً .. وكان الزمن شتاء ، والبرد قارساً ، ودنا منه عبد الوهاب هامساً : « ستقتلها » فلم يعبأ به ، وظل يصب الماء المثلج عليها وهو يقول : إنه علاج مدون ومجرب ، وقد رأيت الطبيب أبا البركات في بغداد يزاوله بنجاح .

ثم أمر بنقل المريضة إلى مجلس دافئ قد بخر بالعود والند، ودثرت بأغطية من الصوف والفراء ، فعطست وتحركت وقعدت ، ثم قامت، وتمشت كأن لم يكن بها شيء ..

وفرح الملك ، وقدم للبطال مبلغاً كبيراً من المال ، فامتنع من قبوله وقال :

– إن على يميناً ألا أقبل من أحد شيئاً مقابل العلاج ..

قال وزير الملك :

– إنه مبلغ كبير ....

– ولو . . لما حلفت ما استثنيت .

وكبر البطال في عين الملك ، وزاد إكرامه له ومن معه ، ثم رجاه أن يشرف على أطباء الجزيرة ويختبرهم ، وأمر ألا يزاول مهنة الطب إلا من ينجح في اختباره . وقد تبين له أن مستواهم في الطب منخفض وأن بعضهم يزاول المهنة دون أن يكون له بها دراية . وفي مجلس من مجالس الاختبار استرعى نظره أحد هؤلاء ، وكان شيخا مسناً ، ورآه ساكتاً لا يشارك في الحديث ، فقال له :

– مالي أرى الشيخ لا يتكلم حتى نرى ما عنده . ؟

– ياسيدي ، وهل شيء مما تتكلمون فيه إلا وأنا أعلمه ..

– فماذا قرأت في الطب ؟

– سبحان الله . . صرنا إلى حد ما يسأل عنه الصبيان . . ياسيدي ، لمثلي لا يقال الآ أي شيء ألفته في الطب وكم لك فيه من الكتب والمقالات ..

ثم دنا الشيخ من البطال وقال له فيما بينهما :

– إنني قد شخت وأنا أزاول هذه المهنة ،ولا أعرف منها إلا اصطلاحات

وأدوية مشهورة ، وأنا أتكسب منها وعندى أولاد ، فأرجوك ألا تفضحنى وألا تمنعنى من التكسب لعيالى . .

ـ لك ذلك ، ولكن على شرط . . .

ـ إنى طوع أمرك ياسيدى . .

ـ لا تعالج مريضا ، إلا إذا كان مرضه ظاهرا معروفا ودواؤه مشهورا .

ـ هذه هى طريقتى التى أتبعها دائما . .

ورفع البطال صوته فى المجلس :

ـ ياشيخ اعذرنى ، فإنى ماكنت أعرفك ، والآن قد عرفتك . .

ـ ١٣ ـ

كان عبد الوهاب والبطال ولؤلؤة قد تهيئوا للرحيل ، وكانوا فى مجلس ملك الدمروس بعد أن استأذنوه ، وأعد العدة لرحيلهم آسفا لفراقهم ، وقد وعده البطال بالزيارة بين وقت وآخر .

ـ كانوا كذلك حينما دخل على ملك الدمروس رسول من قبل ملك الروم برسالة يقول فيها : إن الملوك والقواد والجيوش قد تجمعوا فى القسطنطينية ، وكانوا يتوقعو ن أن تصل إليهم وتسير بهم لغزو بلاد العرب ، وقد طال مكثهم بالقسطنطينية ، فرأوا أن يسيروا إلى ما عزموا عليه ، وعليك أن تلحق بهم .

كان الرسول من خاصة ملك الروم ، وقد رأى البطال وعبد الوهاب غير مرة فى أثناء أسرهما بالقسطنطينية ، ولهذا دهش حينما رآهما عند ملك الدمروس . . قدم الرسالة ، وتناولها ملك الدمروس وقرأها ، ثم أمر الرسول أن ينصرف ويستريح بالقصر حتى يكتب رده إلى ملك الروم ، ولكن الرجل توقف وهو ينظر فى دهشة إلى البطال :

ـ يامولاى ، أما تعرف من هؤلاء . . ؟

ـ . . . . .

ـ هذا هو اللص المحتال محمد البطال ؛ ؛ وهذا هو فارس العرب الأسود عبد الوهاب عدو البلاد ؛ ؛

صاح الملك :

ـ ماذا تقول ؟

والتفت إلى البطال فرآه يضحك ؛ ؛ ؛

ـ مم تضحك ؟

ـ أضحك من قلة عقل هذا الرجل ؛ ؛

ـ ولأى شىء يكذب ؟

وقال الرجل :

ـ لكى يظهر الصدق من الكذب أقترح على مولاى الملك أمراً ؛ ؛

ـ قل ؛ ؛

ـ فلنأت لهم بكتاب المسلمين ، فإن مزقوه ورموه ، فهم صادقون، وإلا فإنهم مسلمون ؛ ؛

وجىء بالمصحف ، فقدمه الملك إليهم ، وهم عبد الوهاب بالكلام يريد أن يجاهر بالحقيقة . ولكن البطال أشار إليه خفية بالسكوت ، وقال للملك :

ـ إن هذا كلام الله ، وهو كالإنجيل فيه التحريم والتحليل .

فقال الملك :

ـ دع عنك هذا الكلام ؛ ؛ (وصاح) ؛ ؛ خذوهم ؛ ؛

فأقبل عليهم الحراس والجنود ، وأخذوا يضربونهم بالسياط ، وراح البطال وغلامه يصرخان أما عبد الوهاب فلم يكن يظهر ألماً ؛ ؛ بل كان يقول للبطال : اصبر ، إن الله يجزى الصابرين . فقال له البطال وقد نفد صبره :

ـ فلتحمل هذا الأجر وحدك ؛ ؛ ؛

فضحك عبد الوهاب ؛ ؛ فصاح به البطال :

ـ أتضحك فى هذه الحال . . ؟ (وهو ينظر إلى من يضربه) . . زده من جزاء الصابرين . .

* * *

قالت زوجة الملك لزوجها :

ـ على أى شىء عولت فى أمر المسلمين ؟

ـ لا بد من إحراقهم . وسأعجل بذلك اليوم قبل أن أمضى إلى بلادهم وألحق بملك الروم .

كانت تحس بعرفان الجميل نحو الرجل الذى شفاها من مرضها ، ولكنها لا ترى فائدة من الكلام فى العفو عنهم ، فزوجها وقومه يعتبرونهم أعداء قتلهم واجب ، وقتالهم مقدس ، فلا يقبلون فيهم أى كلام . . لهذا عولت على أن تحاول إنقاذهم بطريق الحيلة ، قالت :

ـ إنكم ذاهبون إلى حرب قومهم ، وقد يقع أحد منكم فى الأسر ، وهؤلاء من كبارهم وفرسانهم أفلا ترى أن تبقى على حياتهم وتحتجزهم هنا فى السجن ، فإن أسر العرب أحد الملوك فديناه بهم ، وإن يحدث شىء من هذا وعدتم منصورين أمرت بقتلهم والتخلص منهم ؟

ـ ولكنى أخشى أن يهربوا . .

ـ استبق فى حراستهم جماعة من رجالك الأشداء وليكن على رأسهم « جالوت الجبار » .

ـ جالوت ؟ كنت أريد أن أستصحبه فى حرب العرب .

ـ إن حماية الجزيرة تحتاج إليه على أى حال فى غيبتكم .

ـ لا بأس ، فليكن ما أشرت به .

ورحل ملك الدمروس ، وسار بجيشه يقتفى آثار جيوش الروم ، حتى لحق بها وهى متجهة إلى « ملطية » ، فأبلغ ملك الروم بأمر عبد الوهاب والبطال ، فسر كثيراً وقال :

ـ شكراً لك أيها الملك الشجاع ، والآن نستطيع أن نهجم على ملطية

ونخربها ثم نذهب إلى بقية بلاد العرب ونأخذها بلدا بلدا ... حتى نصل إلى بغداد ونستولى عليها .

* * *

لم يكن قد مضى وقت طويل على غزو « ملك المغلبيط » لملطية ، فكانت لا تزال تعانى من الدمار الذى ألحقه بها حينما اتجهت إليها جيوش الروم ... وعندما رأى أهلها ما حاق بهم خرج الرجال منهم للدفاع وهم يدعون أهلهم وأولادهم ... ولم يجد الروم عناء كبيراً فى دخول المدينة بعد أن قتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا .

وعلمت بذلك ذات الهمة وهى فى « السويداء » التى تحصنت فيها على مشارف بلاد الروم كى تتنسم أخبار ولدها عبد الوهاب ، فجمعت فرسانها وهمت أن تسير بهم إلى ملطية ، وإذا جاسوس من الجواسيس الذين بعثت بهم ليعرفوا لها أخبار عبد الوهاب والبطال قد أقبل عليها وأنبأها بهروب عبد الوهاب والبطال من القسطنطينية ، فكاد قلبها يطير من الفرح وعدلت عن المسير إلى ملطية حتى تلتقى بعبد الوهاب والبطال .

ومكثت ذات الهمة بالسويداء تتنازعها عواطف وانفعالات مختلفة ، فهى – وإن كانت قد فرحت بنجاة ولدها من أسر الروم – قلقة حزينة على ما أصاب ملطية وما نزل بها من البلاء ، وخاصة بعد أن وصلت إليها تفصيلات عن أعمال التخريب والإذلال التى قام بها الروم فى ملطية ، وحز فى نفسها كثيراً ما بلغها من سبى النساء وفى جملتهن « أم عمرو » التى ساقوها وهى تنادى :

« واذلاه ... أين حماة الحمى ... ؟ أين أنت ياعمرو ... ؟ أين أنت ياعبد الوهاب ... ؟ أين أنت ياذات الهمة ... ؟ أين أنتم ياحماتنا لتروا ما حل بنا من الذل والهوان ... ؟ »

وقالت امرأة من بنى كلاب لأم عمرو وهى مربوطة معها بالحبال !

– الآن عرفتم عبد الوهاب وذات الهمة ... وولدك هو الذى فعل ما فعل بعبد الوهاب ، وكانت نتيجة ذلك وقوع هذه المصائب ...

كتمت أم عمرو غيظها وقالت :

— والله ما حلت بنا المصائب إلا بإيقاع الخصومة بين بنى سليم وبنى كلاب والإفساد بينهم . . . ولقد كان سبب ذلك كله الملعون عقبة . . .

قالت المرأة ساخرة فى مرارة :

— وأين عقبة الآن كى يحمينا ؟

— لا أحد يعرف أين هو الآن . . لقد ذاب . . فص ملح وذاب . .

— إنه يعرف متى يظهر ومتى يختفى ، وليس هذا الوقت من الأوقات التى يظهر فيها . . . (بعد صمت) سمعت أنه ذهب إلى مكة للحج (ساخرة) كى يعلق على الكعبة دسائسه وذنوبه .

حكى ذلك لذات الهمة ، فودت لو ظفرت بعقبة فى هذه الساعة فأطارت رأسه عن جسده . . . وندمت على أنها لم تفعل ذلك من قبل ، وقامت بنفسها رغبة فى أن توبخ ولدها عبد الوهاب لأنه منعها من قتل عقبة . . تريد أن تقول له : أرأيت ما حل بك وبقومك وبملطية بسبب هذا المنافق . . ؟ وتخيلت عبد الوهاب يرد عليها : لا يا أماه ، إن الذى كان يمكن أن يحل بنا لو قتلناه أشد وأنكى مما حدث . . كنا سنضطر أن نجرد السيف فى وجه ولى الأمر ، فيحدث ما يحدث مما لا تحمد عقباه فى بلاد العرب والمسلمين . . أما الذى وقع فما أهونه . . . وها نحن أولاء نجونا من أسر الروم وعما قليل نلتقى وننقذ الأسرى ونعود إلى ملطية ونعمرها والويل لمن خربوها . .

وشعرت ذات الهمة بأن خواطرها امتدت بها إلى أحلام اليقظة . . وأن عبد الوهاب الذى تمثلته يحاورها . . لايزال غائباً ولا تعلم متى يعود ولا ماذا وقع له فانتبهت قائلة فى نفسها فايكن أى شىء . . فقد يعود عبد الوهاب . . وكل شىء بعد ذلك يدبر . . (وبكت) أين أنت ياولدى . . النار فى كبدى . . .

كان « جالوت الجبار » يطيب له — إذا أراد أن يشرب — أن يحضر إلى المكان الذى سجن به عبد الوهاب والبطال ولؤلؤة ، ويجلس قريبا منهم على مائدة الشراب ، ويظل يجرع الكئوس ويلقى ثمالاتها عليهم ويقول لهم ساخرا معربداً :

— أتحبون أن تشربوا ... ؟ هاكم الكأس ...

ويقذفهم بالباقى فى الكوب ويقهقه :

— هاها ... الخمر حرام ... أليس كذلك أيها المسلمون ... ؟

وكان عبد الوهاب يتذرع بالصبر ، أما البطال فكان — عندما يلحظ أن جالوت قد سكر — يبدأ الترنم ببعض الأغانى الرومية التى يعرفها ، فيهش له جالوت ، فيرفع صوته بالغناء ... وجالوت يقهقه ويعربد ... وشيئا فشيئا بدأ جالوت يستظرف البطال ويستزيده من الغناء .

وكان جالوت إذا دخل السجن أو خرج منه يغلق الباب عليهم ويضع المفتاح فى جيبه ، وكانت زوجة الملك تنتظر حتى يغلق الباب ويذهب إلى منزله ليلا ، فترسل إليهم طيبات الطعام مع خادمتها الخاصة وتبلغهم تحياتها ، وكانت الخادمة تكلمهم وترمى إليهم الطعام من خلال قضبان النافـــذة .

وذات ليلة ذهبت الملكة إليهم بنفسها ، وكلمتهم من خلال القضبان ، وسألتهم :

— هل تحتاجون إلى آية خدمة ؟

فقال لها البطال :

— شكرا لك أيتها الملكة النبيلة ..

— الشكر لك ياحكيم العرب على معروفك الذى لا أنساه ، فقد شفيتنى وأنقذتنى من الموت ..

— إننى ياسيدتى لم أفعل غير الواجب .

— إنى أريد مجازاتكم ومساعدتكم ، ولكننى لا أعرف ماذا أفعل . .

— هل يمكن أن تجهزى لنا سفينة نبحر فيها ليلاً ؟

— هذا أمر سهل ، ولكن كيف تخرجون من هنا ؟

— إننا نستطيع ذلك بطريقة خاصة . . فى الليلة القادمة مرى الخادم أن تكون قريبة منا ، وعندما تحين الفرصة سأصفق لها ، ويكون معنى ذلك أننا على استعداد .

— حسن ، سأدبر أمر السفينة . .

وجاء جالوت كعادته ، وشرب وسكر ، وغنى له البطال . . وفى غفلة منه أسرع البطال فوضع له فى كأسه قطعة من بنج يحتفظ به فى طيات عمامته . . وشرب جالوت الكأس ، وجعل البطال يرقبه وهو يغنى ، حتى رآه يغيب عن الوعى ، ويرقد كالجثة . . فأخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب وصفق . . .

* * *

قالت الملكة :

— ستقودكم الخادمة إلى باب الميناء الذى أعد للملك خاصة كى يخرج منه إلى السفن الحربية ، وهناك ستجدون سفينة معدة لكم كى تبحروا عليها ، ولكنى أخشى عليكم من بحارة السفن الذين قد يتنبهون لكم ويستيقظون ويزداد الخطر إذا أفاق جالوت قبل أن تبعدوا . .

فقال لها البطال :

— اطمئنى ، إننا سنحمل جالوت معنا ، وسيجد نفسه عندما يفيق مقيداً مغلول اليدين . . وهذا الأسود (مشيراً إلى عبد الوهاب) كفيل بكل من يعترض طريقنا . . ولكنه يحتاج إلى سيف ، وأنا أيضاً وهذا (مشيرا إلى لؤلؤة) . .

— ستجدون الأسلحة فى السفينة وكل ما تحتاجون إليه . .

— شكراً لك أيتها الملكة العظيمة . .

* * *

حملوا « جالوت الجبار » وهو فى غيبوبة البنج إلى السفينة .

وما كادوا يتحركون بها حتى سمعوا أصواتا تعلو وتتجمع ، ثم رأوا السفن تمخر عباب الماء فى اتجاههم ، وتحاول أن تضرب نطاقا حولهم . .

وتناولوا السيوف والحراب ، واستعدوا للقتال ، وصاح البطال بغلامه لؤلؤة على حين كان يرقب المهاجمين ويستعد لهم هو وعبد الوهاب :

ـ أسرع . . أيقظ هذا الحيوان (مشيرا إلى جالوت) وكن على حذر منه .

فجعل لؤلؤة يضربه حتى أفاق ووجد نفسه مقيداً مغلولا لا يدرى أين هو . . . وتثاءب ثم قال وقد عاد إليه شيء من الوعى :

ـ ما هذا ؟ أين أنا . . . ؟

ولم يمهله البطال ، إذ صفعه صفعة قوية أطارت من رأسه بقية البنج والخمر ، وصاح به :

ـ مر جنودك أن يكفوا عنا . . .

فكّوا قيودى أولا . . .

قال ذلك وهو يرى عبد الوهاب يقاتل قتالا عنيداً . . . كان يتلقى الحربة المصوبة إليه ويردها إلى خصمه فتصيب مقتله . . . وهجم عليه جندى عنيد فأرداه بسيفه وهوت جثته إلى أعماق البحر .

والتفت عبد الوهاب إلى جالوت وهو يحاور البطال ، فرآه يحاول أن يكسب الوقت حتى يستطيع الخلاص . . . وانتبه عبد الوهاب فى اللحظة نفسها إلى قارب دنا منه وعلى ظهره رجل يصوب إليه حربة ، فأسرع إلى الرجل وحمله بيده اليسرى والسيف فى يمينه ، وقال لجالوت :

ـ انظر . . . أيهما أحب إليك : أن تأمر رجالك بالكف والرجوع عنا . . أو أشطرك نصفين مثل هذا . . . ؟

وضرب الرجل بسيفه فشقه نصفين . . .

فارتاع جالوت ، وصاح فى رجاله آمراً إياهم أن يكفوا عن القتال ، فقال له البطال :

– قل لهم إننا أصدقاؤك وأنك مرافق لنا لتودعنا ثم تعود إليهم .

فلم يجد بدأ من أن يقول ذلك وهو يرى عبد الوهاب ينظر إليه بعين حمراء والسيف فى يده . .

وسارت السفينة باسم الله مجراها ، وكان مرساها قريبا من « السويدية » حيث تنزل ذات الهمة ومن معها ، وكان لؤلؤة قد أخبر عبد الوهاب والبطال بأنها ترابط هناك بجيشها ، فاتجهوا إليها . .

- ١٥ -

كان عبد الوهاب مشغول البال بميرونة ، يريد أن يعرف ماذا جرى لها ويعمل على استعادتها ، واشتد به الشوق إليها ، حتى كاد ينسى ماعداها . . كاد ينسى ما جرى لملطية وما حكته له والدته من عظائم الأمور التى وقعت فيها . . وراح يفكر ماذا يصنع وبم يبدأ . . أيذهب إلى ملطية حيث يلتقى هناك بجيوش الروم ، أم يهاجم القسطنطينية وقد رحلت عنها هذه الجيوش ؟ ورجحت عنده كفة الاتجاه إلى القسطنطينية وهو يشعر فى أعماقه بالحنين إلى ميرونة . . راح أولا يغالط ويتجاهل شعوره عندما قال للبطال إنه عول على الذهاب إلى ملطية . . وصادف جواب البطال هوى فى نفسه وإن بدا فى أول الأمر معارضا له . . قال البطال :

– ياأمير . إن جيوش الروم والفرنجة كلها مجتمعة هناك ، فكيف نلقى بأنفسنا ونحن قلة فى مواجهة هذه الجيوش ؟ الرأى عندى أن نحاصر القسطنطينية ونحاول التغلب على حاميتها وندخلها ، وعندما يصل نبأ ذلك إلى ملك الروم فإنه يفزع ويعود لإنقاذها ، ومنذ الآن نكتب إلى قومنا فى البادية ليسرع إلينا فرسان بنى كلاب وبنى عامر وبنى سليم ، ونكتب إلى الخليفة كى يمدنا بجيش كبير .

قال عبد الوهاب فى مرارة :

- الخليفة .. ؟ ألا تعلم أنه مشغول بمن خرجوا عليه فى خراسان ؟

- وغداً تطبق عليه جيوش الروم ، فلا يدرى أيلاقى المصائب من ملك الروم أو من جرهم بن جرهان . وكل ذلك بسبب الملعون عقبة .. فلو لم يسمع دسائسه لكنا الآن فى نصرته .

- كنت أود أن أقاتل جرهم وأرد كيده عن الخلافة .

- قاتل الله عقبة .. إن نفاقه ودسائسه هى التى أوقعتنا فيما نحن فيه .

- كما أوقعت قريبه وحاميه « عمرو » فى أسر الروم .. إن الجريمة ليست جريمة عقبة وحده ، إنما يشاركه فيها الحكام الذين ينخدعون بنفاقه ويسمعون كلامه .

- وهم الآن يعانون من عواقب ذلك أكثر مما نعانى نحن .

- لا يا محمد ، إنها مسئوليتنا جميعاً . إن كل ما ينزل بقومنا فى جميع بلاد العرب إنما هو نازل على رءوسنا ..

- آه يا نارى .. لو أظفر الآن بعقبة فإنى أطفىء لهيب غيظى منه ولو بصفعة على قفاه وبصقة على وجهه .

ودخلت عليهما ذات الهمة ، فنهضا يستقبلانها ويرحبان بها . قال لها عبد الوهاب :

- هل أنت بخير يا أماه ؟

- كيف لا أكون بخير يا ولدى وأنا سعيدة بعودتك إلى سالماً ؟

وراحت تملأ عينيها بالنظر إليه ، ثم قالت :

- جاءتنى اليوم أنباء جديدة من ملطية ..

وسكتت قليلا وهما يتطلعان إليها فى انتظار ما تقول ، ثم قالت :

- بعد أن فرغ ملك الروم من ملطية ترك بها حامية من جنوده واتجه بجيوشه إلى الموصل .. (بعد صمت) والمهم الآن أن الأسرى والسبايا ...

قال عبد الوهاب بلهفة :

- أين هم الآن ؟

ـ فى الطريق إلى القسطنطينية ، عهد بهم وبكثير من الأموال التى نهبوها إلى أحد قواده كى يذهب بهم إلى القسطنطينية .

ـ أولا يزالون فى الطريق ؟

ـ لا تزال أمامهم أيام حتى يصلوا إليها ..

* * *

نادى عبد الوهاب بالاستعداد للرحيل .. وتحرك الركب من السويدية فى خمسة آلاف من فرسان بنى كلاب وألفين من السود ، وسار على رأسه عبد الوهاب وإلى جانبه الأميرة ذات الهمة . وجدوا فى السير وهم قلقون على الأسرى ، يخشون أن يفلت بهم الروم إلى القسطنطينية ، حتى وصلوا إلى مضيق بين جبلين بينه وبين القسطنطينية مسيرة ثلاثة أيام . وتطلعت ذات الهمة فرأت على رأس الجبل صومعة عابد ، فقالت : لمحمد البطال ، أن يمضى إليه ويسأله هل مر به جنود الروم بالأسرى . فسار إليه البطال ، ولما كان عنده حيَّاه فرد عليه التحية ، ثم قال له البطَّال :

ـ كيف ترى حال الدنيا ؟

ـ أرحام تدفع وقبور تبلع ..

ـ وما حال أهلها ؟

ـ من نال منها شيئاً حسرته على فقده ..

ـ من خير الأصحاب ؟

ـ العمل الصالح .

ـ وما شر الأصحاب ؟

ـ اتباع الهوى ..

وبعد أن شعر البطال بأن العابد أنس به قال له :

ـ هل مر بك أسرى من المسلمين فى صحبة جنود من الروم ! ؟

ـ مروا أمس . جاءنى مقدمهم وطلب ماء فسقيته ..

ثم قال العابد للبطال :

ـ انصرف عني فقد شغلتني عن محبوبي ..

* * *

استأنفوا السير مسرعين في اتجاه القسطنطينية ، ولما جاء عليهم الليل لم ينزلوا ، بل ظلوا سائرين مجدين حتى وصلوا مع الصباح إلى مرج فسيح .

كان جنود الروم والأسرى قد نزلوا مساء في هذا المرج ، وباتوا فيه : وفي الصباح هب الجنود يستحثون الأسرى ويلوحون لهم بالسياط .. وكانت « أم عمرو » ساهرة طول الليل لم يغمض لها جفن .. بعدت قليلا عن القوم وهي ترسف في قيدها وتدعوا الله أن ينقذهم من هذا البلاء ، فتصدى لها جندي من الروم ونهرها وجذبها من ذراعها بشدة ، فوقعت على الأرض ، ثم قامت وهي تتعثر وصاحت :

ـ واذلاه .. واذل العربيات .. أين الحماة .. أين الفرسان .. ؟

وفي هذه اللحظة كان عبد الوهاب يتقدم الفرسان السود وبني كلاب ، فرأى أم عمرو وسمعها ، فناداها :

ـ لبيك يا أم عمرو ..

قالت بلهفة :

ـ من الصائح ؟

ـ أسود بني كلاب ..

ـ وافرحتاه .. كر عليهم يا ابن الكرام ، وخلص من الأسر بنات الأعمام ، وخذ حقنا من اللئام ..

وهجم العرب على الروم ، ودقت الطبول ، وصهلت الخيول ، وارتفع الصياح ، ونفذت في الصدور الرماح ، وسلبت الأرواح ، واشتد الضرب والطعان ، وطارت الرءوس عن الأبدان .

وخيل للروم أن الدنيا قد انقلبت والأرض زلزلت ، وتكاثف الغبار ، فعميت منهم الأبصار ، وصار عبد الوهاب يقرع فيهم بالحسام ، إلى أن

وصل إلى قائدهم ، فضربه بين وريديه ، طير رأسه عن منكبيه ، ولما رآه قومه مجندلا ولوا منهزمين يطلبون النجاة ..

وفك العرب قيود الأسرى ، وحملوا الأموال ، وشرعوا يضربون الخيام ، للراحة والاستجمام . وتفقد عبد الوهاب محمدا البطال فلم يجده ، وأمر بالبحث عنه فلم يعثر له على أثر .. فقلق عليه ثم شغل عنه إذ رأى ما أثار انتباهه واهتمامه .. رأى الأمير عمرواً مربوطاً فوق جمل أحمر وقد أحاط به بعض فرسان العرب بعد أن استنقذوه من الروم المنهزمين .. أناخ عبد الوهاب الجمل وفك قيود عمرو وقبل رأسه وهو يقول له :

— لا كان يوم يصيبك فيه سوء .

— شكراً لك يا أخى ..

وأقبلت أم عمرو فاحتضنت ولدها وقبلته وبكت، ثم التفتت إلى عبدالوهاب وهى تمسح دموعها :

— لو لم تكن مأسوراً ما استطاع كاب من الروم أن يصل إلينا ..

وقالت لعمرو :

— يا ولدى ، لا تسمع بعد اليوم أى قول فى حق فارسنا عبد الوهاب .. (ملتفتة إلى عبدالوهاب) لا أدرى كيف أشكرك يا ولدى .. أرجو ألا تكون متأثراً بما كان ..

— ما فات مات يا خالة ..

وظل عمرو مطرقاً يسأل نفسه : هل حقاً ما فات مات . ؟ وأجاب نفسه : هيهات .. ثم راح سؤال قديم يتسكع فى أعماقه : أين الأمير .. ؟ ثم تنبه إلى حقيقة الموقف وخجل من نفسه ..

وخطر لعمرو أن يسأل عن القاضى عقبة ، ولكنه شعر أن هذا غير مناسب فى حضور عبد الوهاب لما يثيره من أشياء لا تحسن إثارتها فى موقف يتطلب الشكر والعرفان .

* * *

لم يظهر البطال .. وعاد القلق إلى عبد الوهاب .. وعاد من كلفهم بالبحث يقولون : لقد شوهد ومعه جماعة من الفرسان ينطلقون وراء الروم الفارين ، ولم يعد أحد منهم .

وفجأة بدا فى الأفق غبار ووصل إلى المسامع صهيل خيل .. وانكشف الغبار عن محمد البطال ومن معه من الفرسان فى منظر يسترعى الأبصار .. كل فارس يسوق إلى جانب فرسه فرساً آخر أو أكثر ..

ـ من أين هذه الخيل يا محمد ؟

قال محمد البطال لعبد الوهاب :

ـ هذه خيول المنهزمين ..

ـ كيف تبعتهم وماذا فعلت معهم ؟

ـ لما رأيت المعمعة والرءوس مقطعة ، ورأيت قومنا يعملون فى رقاب الأعداء السيوف ، ورأيت الروم يفرون خوفاً من الحتف ، أخذت مائة من الفرسان ، وسبقت بهم قبل أن ينظرونا ، وأمسكنا رأس المضيق ، الذى يفضى إلى الطريق ، فما أتى أحد منهم إلا حملناه من البلاء مالا يطيق ، ولم ندع منهم من يفلت إلى القسطنطينية ويخبر أهلها بما وقع لهم ..

ـ هل خفت أن يخرجوا إلينا من القسطنطينية ؟

ـ لا ، ولكنى أريد أن ندخل القسطنطينية وأبوابها مفتوحة بين أيدينا وكل من فيها يرحب بنا ..

قال عبد الوهاب مندهشاً :

ـ كيف ذلك ؟

لقد جمعنا خيولهم وأخذنا الأعلام التى كانوا يحملونها ونزعنا ثيابهم وسنفرقها على بنى كلاب . ثم نمضى جميعا فى زى جنود الروم إلى القسطنطينية رافعين أعلامهم وعليها الصليب ونصطحب المأسورين من العرب ، ونربطهم بالحبال ومع كل منهم سيف فى طيات ثيابه ، فإذا وصلنا البلد علموا أننا من جيشهم وقد عدنا بالأسرى ، فيهبون إلى استقبالنا ويفتحون لنا الأبواب فإذادخلنا أعملنا فيهم السيوف ، وعندما يرانا الأسرى فعلنا ذلك يخرجون هم أيضا سيوفهم ويعملونها ..

وأعجبت الفكرة عبد الوهاب ، ولكنه فكر قليلا ثم قال :

ــ بنو كلاب يلبسون ثياب الروم فيبدون مثلهم . . نعم ، ولكن الفرسان السود . . ماذا نصنع بهم ؟

ــ تتأخر أنت والسود ، فلا تقع عليكم الأنظار عند الدخول أولا ، فإذا وقعت المعمعة تقدمتم إلى القتال سافرين ويعلم أهل البلد أن جيشنا عزز بالسود فيرهبوننا وتضعف عزائمهم . .

- ١٦ -

وصلت إلى قبائل العرب فى بادية الحجاز عدة رسائل من الخليفة يدعوهم إلى قتال جرهم بن جرهان المجوسى الذى خرج عليه فى خراسان ، ثم إلى قتال جيوش الروم المتجهة إلى الموصل قاصدة بغداد . . ومن عبد الوهاب يدعوهم إلى الجهاد فى الثغور ومهاجمة القسطنطينية .

وقد لبى دعوة عبد الوهاب كثير من فرسان البادية ولا سيما بنو كلاب الذين كانوا يتناقلون أخبار جدهم «الصحصاح» ومغامراته وانتصاراته فى بلاد الروم ، وكذلك انتصارات أميرتهم المحبوبة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب وبقية أبطال بنى كلاب الذين رحلوا إلى الثغور وجاهدوا بها واستوطنوا « ملطية » .

وبينما كان عبد الوهاب والبطال وذات الهمة يضعون الخطة لمهاجمة القسطنطينية وصلت إليهم الأنبــاء بقدوم فرسان البادية فى الطريق إليهم ففرحوا بذلك وأعدوا العدة لاستقبالهم وفى صباح اليوم الثامن بعد المعركة التى خلصوا فيها الأسرى لاحت فى الطريق رايات وأعلام عربية يحملها فرسان يتقدمون أعدادا هائلة من أبطال البادية .

وتعانق الفرسان وتبادلوا عبارات الترحيب والتحيات ، ونحرت الذبائح وأقيمت المآدب ، وقضوا يوماً وليلة فيما طاب لهم من الأحاديث والأسمار وإنشاد الأشعار ، ولم تخل بعض الحلقات من الغناء والرقص على توقيع الدفوف وتصفيقات الأيدى وهمهمات الرجال . .

* * *

تحرك الركب إلى القسطنطينية ، وفى مقدمته فرقة على رأسها البطال وقد لبس أفرادها ملابس جنود الروم ، وساروا حتى اقتربوا من البلد ، وكان البطال قد أرسل غلامه لؤلؤة إلى القسطنطينية كى يتعرف الأخبار والأحوال هناك ، وعاد لؤلؤة ولقى أستاذه البطال وأخبره بأن ملك الروم قد أناب عنه قبل أن يرحل إلى ملطية « أوطاليس » وهو رجل شديد البأس ، صاحب رأى ؛ وبصير بالأمور ، وقد وصل إليه نبأ قدوم فرقة من الجيش الرومى تسوق الأسرى العرب وهو يستعد لاستقبالهم . وقد سرى النبأ فى القسطنطينية ، فزينت أسواقها ، واستعد التجار لشراء الأسرى والسبايا والخيول العربية التى غنمها الروم من العرب ..

وذهب لؤلؤة مرة ثانية إلى القسطنطينية ، وعاد يخبر بأن أوطاليس خرج للاستقبال فى ألف فارس . فقال البطال لعبد الوهاب :

— يقولون فى الأمثال : من لم ينظر فى العواقب فما الدهر له بصاحب ؛ والعرب على أى حال لا تخفى ، وعما قليل نلتقى بهذا الملعون أوطاليس ، ومن دهائه أنه لم يرسل إلينا من ينوب عنه ، بل خرج بنفسه ..

— وماذا عندك من الرأى .

— الرأى عندى أن نقيم سرادقاً عظيما يقف على بابه ألفان من فرساننا فى زى الروم ومعهم الأسرى والسبايا مربوطين ، ونجعل بقية قومنا فى مكان بعيد عن عيون القادمين ، وتقعد أنت فى داخل السرادق ، وأخرج أنا لاستقبال أوطاليس فى صفة جندى رومى وأكلمه بالرومية وأطلب منه أن يترجل ويدخل السرادق كى تعرض عليه الغنائم والأسرى والسبايا .... وعندما تقع عينه عليك قم له واقترب منه كأنك ترحب به وتعانقه .. فاذا كان بين يديك فاقبض عليه .. وفى نفس الوقت يقبض كل رجلين منا على رجل منهم ، ونصيح : الله أكبر ، فيأتى بقية رجالنا ونطبق عليهم فلا يفلت منهم أحد ..

— لله درك يا محمد .. وماذا نصنع بهم بعد ذلك ؟

— ننزع ثيابهم عنهم ، ونضرب رقابهم ، ونلبس ملابسهم ، وأنا ألبس

ثياب أوطاليس وأتكلم بلسانه ... ثم ندخل البلد ، وسنجد أبوابها مفتوحة ، والقوم يرحبون بنا .. والباقى أنت تعرفه ..

* * *

قال محمد البطال لأوطاليس وهو يستقبله على باب السرادق :

ــ لك البشرى أيها الملك .. فتحت البلاد وملكت رقاب العباد ، وقد أتينا بالأسلاب والأسرى والسبايا من رجال العرب ونسائهم .

ومد أوطاليس بصره داخل السرادق وقال مشيراً إلى عبد الوهاب :

ــ ومن يكون صاحبك هذا ؟

ــ هذا .. ملك الأنجبار انضم إلى ملك الروم ، وقد أتى ومعه خمسمائة ألف دينار هدية منه إلى خزانة الملك ..

ارتجل البطال هذا الكلام بسرعة ، حتى لا يترك فرصة لأوطاليس يفكر فيها ويكشف حقيقة الموقف قبل أن يتمكن منه عبد الوهاب .

وأسرع عبد الوهاب فوقف ودنا من أوطاليس واحتضنه .. ولم يشعر هذا إلا بيدين من حديد تطبقان عليه حتى تكادا تعصرانه . وتململ أوطاليس وقال :

ــ أتمزح أيها الملك ؟

ــ لا .. إنه جد ..

وكشف عبد الوهاب عن وجهه ، فعرفه أوطاليس ، إذ كان قد رآه فى أثناء أسره بالقسطنطينية فأيقن بأنه قد وقع فى الفخ ..

وأحدق فرسان العرب بالروم .. كل اثنين بواحد وارتفعت الأصوات :

الله أكبر ...

* * *

نزع العرب ثياب جنود الروم ولبسوها ، ولبس البطال ملابس أوطاليس واتخذ هيئته ، وصار كأنه هو .. حتى قال له عبد الوهاب :

ـ وذمة العرب لو لم تفعل هذا بين يدى ما عرفتك ..

فقال البطال :

ـ دعنا من هذا ، فإن الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك ، هيا إلى القسطنطينية قبل أن يعرف أهلها ما حدث ..

ركب عبد الوهاب ، وركبت الفرسان ، وبين أيديهم الأسرى والسبايا مربوطين لا يزالون ..

وخرجت القسطنطينية تستقبل « الفاتحين » .. الأعلام مرفوعة ، والموسيقى تصدح ، والجماهير تتزاحم على جوانب الطريق وفى شرفات المنازل وفوق السطوح .. وتناثرت الأزهار فوق البطال وهم يحسبونه أوطاليس ، والناس يسلمون عليه فيشير لهم إلى عبد الوهاب قائلا باللغة الرومية :

ـ سلموا على « ملك الانجبار » صديق الروم .. فيتزاحمون عليه ويرقصون بين يديه ..

فلما كانوا فى داخل البلد التفت البطال إلى عبدالوهاب قائلا باللغة العربية :

ـ أيها الأمير ، ماذا ننتظر ، أعلن النذير وتوكل على اللطيف الخبير ..

هتف عبد الوهاب :

ـ الله أكبر ..

ورددت الأصوات الهتاف ، وامتدت الأيدى إلى السيوف فخرجت تلمع وتهوى على الرقاب ، فجرت الدماء ، وتفرقت الجموع ، وعلا الصياح ..

ولما رأى أهل القسطنطينية أنهم خدعوا وغلبوا على أمرهم وأنهم أمام قوة من العرب لاقبل لهم بها ـ لما رأوا ذلك نادوا :

ـ لورك .... لورك ...

فسأل عبد الوهاب البطال :

ـ ماذا يقولون ؟

ـ يقولون ... الأمان .. الأمان ..

فأمر عبد الوهاب أن يرفع عنهم السيف ، وأن ينادى المنادى بالأمان والسلام وألا يخاف أحد على حياته وماله ما دام مسالماً ، وأن ينصرف كل إلى عمله ، وأن يذهب المصلون إلى كنائسهم آمنين مطمئنين .

ونظر محمد البطال إلى قصر كبير عالى الأسوار سميك الجدران ، فأشار بالاتجاه إليه . وما تحرك العرب نحوه حتى انهالت عليهم الأحجار والسهام من فوق القصر ، ومن شرفاته وأبراجه، فابتعدوا عنه وأحدقوا به على بعد بحيث لا تصل إليهم السهام والأحجار .

* * *

جاء لؤلؤة إلى عبد الوهاب متراخياً فى مشيته تظهر خيبة الأمل على وجهه وكان قد طاف بالمدينة وجال فى أرجائها يستطلع الأخبار هو وآخرون من الجواسيس .. قال له عبد الوهاب ..

– لا يبدو على وجهك ما يدل على خير .

– يؤسفنى يا أمير أن أخبرك .....

وسكت ، فصاح به عبد الوهاب :

– تخبرنى بماذا .. ؟ تكلم ..

– ميرونة ..

– هل ماتت ؟

– لا ، ولكنها ...

– ماذا حدث لها ... ويحك ..

– أخذها « ملك المغلبيط » .. تزوجها .. كافأه بها ملك الروم قبل رحيله ، ورحل بها إلى بلاده ...

كتم عبد الوهاب حزنه وغيظه وتشاغل بالتساؤل عن حال القسطنطينية ومقاومة أهلها .. وقطع الحديث بقوله للؤلؤة :

– أين البطال ؟ اذهب وأحضره الساعة ..

قال عبد الوهاب للبطال :

ــ ما الرأى عندك ؟

فى أى شىء يسأله الرأى .. ؟ عبد الوهاب نفسه وهو يسأل لا يدرى بالتحديد .. هل يسأله عما يراه فى أمر « ميرونة » ؟ لا ، ليس هذا وقته .. ولا يليق أن يشغل به عن الموقف الكبير .. والبطال يدرك ذلك ، فهو يتغافل عنه برغم علمه به من لؤلؤة .. على أن عنده خبراً مهماً :

ــ لم أنم الليلة الماضية ، كنت أطوف حول القصر ، وأتأمل موقعه ، ومداخله ، عسى أن أجد فيه منفذاً .. ثم رأيت فى ضوء القمر حمامة من حمام الزاجل تقصد نحوه ، فسددت إليها سهماً قبل أن تصل إلى برج فوق القصر ، فسقطت قريباً منى ، ووجدت فى جناحها رسالة ...

ــ رسالة .. ؟

ــ نعم ، رسالة من رجل يقال له « أشمونين » فى جزيرة « أويس » إلى نائب الملك يقول له فيها إنه قادم على مراكب حربية لنجدة القسطنطينية وطرد العرب منها .

ــ ومن يكون أشمونين هذا .. ؟

ــ سنعرف .. سنرسل جواسيسنا يأتون بأخباره ..

* * *

أشمونين شيطان مريد ، وجبار عنيد .. يقال إنه إذا ركب فى مركب واحد وخرج إلى عشرة مراكب أخذها ، فهو فارس البحر ولم يركب ظهر فرس قط ، وكذلك رجاله ، فهم مدربون على القتال فى البحار . وهو يتكلم بمختلف اللغات ، ومنها اللغة العربية ، وقد أقام فى البلاد العربية مدة من الزمان وقرأ بها كتب الحكمة .

قال البطال للجاسوس الذى أتاه بهذه الأخبار :

ــ وجزيرة « أويس » .. أين تقع ؟

ـ إنها على مسافة خمسة فراسخ من القسطنطينية .

وقال البطال لعبد الوهاب :

ـ سآخذ مائتين من رجالنا ، وسأختار المعودين على القتال فى البحار ، ونذهب إلى أشمونين . وعليك أن تناوش القوم فى البلد وخاصة من فى القصر حتى ينشغلوا عنا ونحن نبحر من الميناء ..

ركب البطال ومن معه من الرجال خمس سفن ، وكان ممن اختارهم معه لؤلؤة وضيغم وسملق . وساروا فى البحر ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أشرفوا على جزيرة أويس ، ورأوا المراكب الحربية قد أبحرت منها متجهة إلى القسطنطينية ...

وأمر البطال رجاله أن يتجهوا إلى الجزيرة ويسرعوا حتى يبلغوها قبل أن يلحق بهم أشمونين ، وهناك يستدرجونهم إلى البر ويقاتلونهم فيه ، لأن أشمونين ومن معه لا يحسنون القتال إلا فى البحر ، ولكن أشمونين سرعان ما انتبه إليهم وعرف أنهم عرب مسلمون ، فأمر بالالتفاف حولهم ومحاصرتهم ، فأحدقوا بهم من كل جانب ..

صاح العرب وكبروا ، وسلوا السيوف ، وحمل عليهم أشمونين ورجاله ، ولما وجدوا من العرب مقاومة شديدة ابتعدوا عنهم قليلا وأوقدوا مشاعل النفط وجعلوا يرمونهم بها ويلقونها على قلوع المراكب فتشتعل بها النيران ، ولكن العرب ظلوا برغم ذلك يقاومون ، وظلت المعركة البحرية دائرة طول اليوم ، ثم جاءت سفن أخرى من جزيرة أويس لمساعدة أشمونين ، واشتد الهجوم على العرب ، وكثر إلقاء مشاعل النفط عليهم ، حتى اشتعلت النار فى ثيابهم والتهبت أجسامهم .

وصاح أشمونين :

ـ إنى أنصح لكم أن تستسلموا ، فأنتم فى عدد قليل ، ولو شئت لأفنيتكم جميعاً ، ولكنى أريد أن أفدى بكم أسارى الروم من بلادكم ، فاستسلموا تسلموا وإلا تندموا ...

ورفع البطال يديه علامة الاستسلام ، والتفت إلى ضيغم فرآه يستميت فى الدفاع ، فناداه :

— يا ضيغم ، استسلم يا ولدى ، لا تلق بيدك إلى التهلكة ، لعل الله أن يجعل لنا فرجاً ، ومن هذا الضيق مخرجاً ..

فاستسلم ضيغم ولؤلؤة وسملق وباقى الرجال . وساقهم الروم إلى القسطنطينية ، ولما اقتربوا منها أمر أشمونين البطال أن يخلع ملابسه ولبسها ، وكذلك فعل رجاله مع بعض الرجال العرب .

وجعل أشمونين يكبر ويهلل ، ويدرب من معه على التكبير والتهليل ، ويحاكى صوت البطال وحركاته .. والبطال مندهش من فعله لا يدرى قصده .

ورست السفن على الميناء ليلا ، ورآها عبد الوهاب وجيش العرب ، كما رآها الروم المحتشدون بالقصر ، ففرح بها الفريقان .. أيقن الروم بالخلاص إذ عرفوا أنها مراكب أشمونين ، وظن عبد الوهاب أن البطال قد نجح فى خطته واستولى على المراكب الحربية وأتى بها .. ولما سمع التكبير والتهليل لم يشك فى ذلك ..

وتقدم عبد الوهاب بجواده إلى الشاطىء وتبعته ذات الهمة وعمرو ابن عبد الله ، ونادى عبد الوهاب :

— يا محمد ..

فأجابه أشمونين وهو يحاكى صوت محمد البطال

— لبيك يا أمير ..

— ما شأنك ؟

— اعلم أيها الأمير أنه قد تم المراد ، وأخذنا المراكب من أشمونين الملعون ... وهمس لأعوانه :

— احذروا أن يرتفع صوت من العرب المأسورين ..

قال أحدهم :

— لقد وضعنا فى أفواههم أكراً تمنعهم من الكلام ...

ورفع أشموئين صوته :

ـ يا أمير : ليصعد إلينا مائة من الأبطال ، ليحفظوا المراكب ويحموها من الهجوم :

ـ اقتربوا نصعد إليكم ::

ورمى أشموئين الحبال إلى البر فتعلق بها عبد الوهاب ، ونزع سلاحه حتى لا يعوقه عن القفز ورمى به إلى أشموئين وهو يحسبه البطال ... وكذلك فعلت ذات الهمة وعدد من الرجال . وفى جوف الليل البهيم أطلق أشموئين ضحكة ساخرة مجلجلة .. ثم قال :

ـ يا شيوخ العرب وحمالى الحطب .. قد وقعتم فى يدى ، وسأفعل بكم ما أردتم أن تفعلو بنا .... وحق المسيح إن لم تستسلموا لأحرقنكم بالنار :

ولم يزد عبد الوهاب على أن قال :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ..

وأخذوا جميعاً إلى حيث البطال ومن معه ، ووضعت القيود الحديدية فى أرجلهم . وجزع البطال إذ رأى عبد الوهاب وذات الهمة وباقى الرجال مقبوضاً عليهم ، وقال لعبد الوهاب :

ـ كيف وقعت هذه النكبة ؟

قال عبد الوهاب فى هدوء المستسلم للأقدار :

ـ إذا نزل القضاء عمى البصر :

• • •

صعد أشموئين إلى شرفة فى القصر الكبير مطلة على الميدان الفسيح ، ووقف ، وأوقف إلى جانبه أمراء العرب المأسورين مقيدين ، وصاح فى العرب المجتمعين فى الميدان بقيادة عمرو بن عبد الله :

ـ يا كلاب العرب ، وحمالى الحطب ، وحق المسيح إن لم ترحلوا عن هذا البلد لأقتلن كل من عندى من المسلمين ::

لما سمع عمرو ذلك الكلام تقدم إلى القصر وتبعه السود أصحاب عبد الوهاب وأبطال بنى سليم وبنى كلاب وضربوا بالسهام ، وحاولوا أن يتسلقوا الأسوار ، وقتلوا كل من اعترض طريقهم من الروم .

فغضب أشمونين وأمر بضرب رقاب أربعة من السود المأسورين ، فطارت رءوسهم ، وهاج العرب واشتد هجومهم على القصر ، فاضطرم الغيظ فى نفس آشمونين والتفت إلى البطال وقال مهدداً :

ــ وحق المسيح إن لم تخاطبوهم ليمتنعوا لألحقن رءوسكم بالرءوس التى طارت .

ــ لا تعجل بضرب رقابنا تندم ... فإن الملك يهمه أن نبقى أحياء ، فربما يقع واحد من ملوك الروم فى أسر العرب فنكون له الفداء كما قلت لنا .

ــ لا تحاول أن تخدعنى بهذا الكلام ، إنى أعرفك وأعرف حيلك ..

ــ ويلك .. قدمنى إلى رأس السور حتى أتحدث إلى القوم .

صاح البطال :

ــ معاشر العرب ، اسمعوا ، إن الحرب سجال ، يوم لكم ، ويوم عليكم . إننا قد وقعنا فى الأسر ، وإذا واصلتم القتال هلكنا وهلك عبد الوهاب ، فكفوا واخرجوا من البلد وإلا هلكنا جميعاً ..

وران صمت كئيب قطعه السود المتحمسون فى الميدان صارخين :

ــ لا نقبل الكلام إلا من الأمير عبد الوهاب .

وارتفع صوت عبد الوهاب قوياً فى هدوء :

ــ يا معاشر العرب ، اعلموا أننا قد أسرنا بالحيلة ، ووقعنا فى أيدى هؤلاء الكلاب فاخرجوا إلى ظاهر البلد ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

* * *

كان لمحمد البطال تلميذ من أصل رومى تعلق به فى أحد أسفاره ببلاد الروم ، وأسلم على يديه ، وكان اسمه « أسافين » فسماه البطال « الصافى » واستخدمه فى التجسس على الروم .

منذ علم «الصافى» بأن أستاذه وقع فى أسر أشمونين ، ثم عبد الوهاب وذات الهمة ومن معهم من الرجال العرب ، وهو يتتبع الحوادث ويرقب الأمور من بعيد ومن قريب محاولا أن يجد فرصة للعمل على خلاصهم .

وقد احتال حتى استطاع أن يعمل فى خدمة أشمونين ، وتقرب إليه مجتهداً فى خدمته حتى صار ساقياً له ونديماً فى مجلس الشراب .

وذات ليلة تسلل إلى السجن ، واستطاع أن يدخل إلى البطال وعبد الوهاب بعد أن سقى السجان زجاجة خمر حملها إليه ، وسكر السجان حتى ثقل رأسه وراح فى نوم عميق ..

قال البطال مندهشاً :

ـ الصافى .. كيف استطعت أن تجىء هنا ؟

ـ دع هذا الآن ، سأحكى لك فيما بعد ، المهم أن تعلم أنى الآن أعمل مع أشمونين ..

ـ ماذا تعمل ؟

ـ أسقيه الخمر وأنادمه ..

ـ حسن ، حسن جداً ، خلف أذنى ثلاثة مثاقيل من البنج ، خذها وأنت تعرف الباقى .. هيا ، لا تفك قيودنا الآن ، دعنا وأسرع ..

شرب أشمونين من الخمر التى وضع فيها البنج ، وكذلك شرب جميع من معه من أصحابه وراحوا فى غيبوبة ... وطاف الصافى ببقية الجنود والحراس يسقيهم ..

وأسرع إلى السجن وفك قيود البطال وعبد الوهاب وذات الهمة ، وذهبوا إلى بقية الأسرى فى الغرف الأخرى ففكوا قيودهم وأطلقوهم جميعاً ، ثم أخذوا أسلحة الرائحين فى الغيبوبة ، وصاحوا جميعاً : « الله أكبر »

وهجموا على خزائن القصر ، فأخذوا الأسلحة والأموال ، وهبت جنود الروم تقاوم ، فجرد عبد الوهاب سيفه وصار يضرب يميناً وشمالا فتطير

الرءوس عن الأجساد ، وهجم الرجال السود وأعملوا بسيوفهم فى رقاب الروم حتى أفنوا كل من تعرض لهم .

واستمر القتال طول الليل حتى استولى العرب على جميع من فى القصر ووضعوا أيديهم على كل ما فيه ، ولكن ما كاد يرتفع الضحى حتى تجمع عدد كبير من فلول الروم ومن أقبل لمساعدتهم واشتبكوا مع العرب فى قتال عنيـــد .....

وكانت الجموع كثيرة ، تفر جماعة وتأتى أخرى ، ثم تولى الأدبار ... وهكذا ظل القتال المتقطع دائراً ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أرسل نائب الملك رسولا إلى عبد الوهاب يطلب المهادنة ، فأجابه إلى طلبه .

ثم انعقد مجلس المشورة من عبد الوهاب وذات الهمة والبطال وعمرو ابن عبد الله ، وتناقشوا فى الموقف ، ورأوا أنهم إذا ظلوا فى القسطنطينية فسيطول القتال بينهم وبين أهلها ، وقد وصلتهم أنباء عن تخريب ملك الروم فى ملطية وبلاد العرب واستيلائه على البلاد التى فى طريقه إلى بغداد ، وقال البطال فى أثناء الحديث :

ـ والله ما جر ذلك كله علينا وعلى بلادنا إلا عقبة المنافق والآذان التى أصغت لدسائسه ..

فأحس عمرو بالهجوم الذى يوجه إليه من طرف خفى .. فتغيرت سحنته وقال :

ـ إن عقبة غائب ، ولو كان حاضراً لاستطاع أن يدافع عن نفسه ويثبت براءته ..

فقال البطال ساخراً :

ـ يثبت براءته بخيانته ..

وضحك متهكماً ثم تابع قوله :

ـ اعلم أيها الأمير أنه قد وصلت إلى رسالة تثبت براءته حقاً .. ولكن

من قومه ودينه ولمح عبد الوهاب سيماء الغضب على وجه عمرو ، فأراد أن ينهى الحديث بسلام فقال :

ـ دعونا من هذا ، وكفانا نزاعا وتفرقاً ، ولنواجه الشدائد التى أمامنا والتى تحتاج إلينا متحدين متعاونين .

واستقر الرأى على الرحيل ..

- ١٨ -

كانت الرسالة التى تلقاها البطال قد كتبها بطل من العراق اسمه « هياج الكردى » وهذا نصها :

من المجاهد فى سبيل الله هياج الكردى إلى الأمير محمد البطال ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فيكتب إليك هذا رجل كان بالأمس خصمك وأصبح اليوم من أصدقائك .... هياج الكردى ..لعلك تذكره إذ كان يقيم فى ملطية جندياً مجاهداً مع الأميرة العظيمة ذات الهمة .

كنت ألحظ عداءك للقاضى عقبة ، وكنت مخدوعاً فى هذا الرجل أعتقد أنه من علماء الدين الأتقياء الصالحين ، فكنت أناصبك العداء من أجله ولا أخفى عنك أنى كنت أكتب إلى الخليفة أشكو إليه من اعتداءاتك على الشيخ وإهانته ورميه بالباطل .. ثم ظهرت لى أمور كانت خافية على ، فعرفت حقيقة هذا الرجل المنافق الخائن ، وقد أردت أن أقضى عليه وأريح المسلمين منه ، ولكنه التصق بالخليفة واحتمى به ، وقد صرت من أجله طريد الخليفة مهدور الدم ، فخرجت من بغداد هارباً ، ولم أجد لى وجهة غير الثغور ، لعلى التقى بالأميرة ذات الهمة وولدها البطل عبد الوهاب فأجاهد معهما حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وقد وصلت إلى « مرج الديباج » قريباً من القسطنطينية ، ولقيت غلامكم « الصاق » وحدثنى بأخباركم ، فقعدت أكتب كتابى هذا لأرسله مع الصاق إليكم .

لقد وقعت ـ يا أمير ـ فى بلاد العراق أحداث جسيمة ، إذ هجمت عليها جيوش الروم بعدما خربت ملطية ، وخضنا غمار الحروب معهم ،

واستشهد كثير من أبطال العرب ، وأصبحت الخلافة مهددة ، وقال الناس لو كان عبد الوهاب حاضراً ولم يأسره الروم ما جرت علينا هذه الشدائد ولاستطاع أن يرد عن بلاد العرب كيد ملك الروم ومن تجمع معه من ملوك الفرنجة وجيوشهم . وعرف الخليفة فضل عبد الوهاب وندم على إصغائه لدسائس عقبة فى حقه ، واقتنع حيناً بخيانة عقبة ، ولكنه ما لبث إزاء نفاقه واحتياله أن رضى عنه وشمله برعايته وحمايته ..

وهاك تفصيل ما جرى ، وأرجو أن تطلع عليه الأمير عبد الوهاب والأميرة ذات الهمة مع تبليغ سلامى إليهما :

لما وصلت كلاب الروم إلى الموصل نهضنا للدفاع ، وكنت أميراً على الموصل من قبل الخليفة ، ولم يكن لدينا غير ثلاثة آلاف مقاتل ، إذ أرسلت أكثر الرجال لينضموا إلى الجيش المحارب لجرهم بن جرهمان الذى خرج على الخليفة بخراسان .

وخرجت بثلاثة آلاف لملاقاة جيوش الروم التى لا يحصى لها عدد .. ورفعت الروم أصواتها ، ورطنت بمختلف لغاتها ، وأظلمت الأقطار بجنباتها ، وفزعت الطيور من أوكارها ، ونفرت الوحوش من فلواتها .. وتوكلنا على الله وحملنا ، وظلت نار الحرب مشـــتعلة حتى أقبل ظلام الليل فحجب بين الفريقين ، وعاد الروم إلى مضاربهم ، وعدنا إلى حصن الموصل ، وقد فرح رجالنا بنجاتهم ولم يقتل منهم إلا القليل .

وأوى الرجال إلى مضاجعهم ، ولم يغمض لى جفن ، فقمت أتمشى ، وهبت على نسمة أغرتنى بالتجوال ، حتى وصلت إلى موضع القتال ، فسمعت أنين رجل من الروم ما لبث أن انقطع فدنوت منه فوجدته جثة هامدة ، وحدثتنى نفسى بأمر .. انزع ثياب الرجل وألبسها .. ثم اذهب إلى معسكر الروم كأنك واحد منهم ، واجتهد حتى تصل إلى ملك الروم واضربه الضربة القاضية .. لن يكون إلا أحد أمرين : إما أن تظفر وتنجو ، وإما أن تقع فى أيديهم ، وتقدم روحك فداء ....

ووصلت إلى سرادق الملك ، ووقفت أفكر .: إنى أعلم أن جنود الروم لا يدخلون على ملوكهم ، لا يفعل ذلك إلا المقدمون : ثم سمعت جلبة ، فانزويت أرقب ، ولا أخفى عنك أننى خفت أن يكون القوم قد كشفوا أمرى وهبوا يتعقبوننى ، ولكنى صبرت وقلت لنفسى : لماذا تخافين ؟ ألم أخرج مفادياً بنفسى ؟ فليكن ما يكون .: ورأيت ما لم أكن أتوقعه، بل ما كنت أعتقد استحالته .: رأيت « عقبة » .: نعم عقبة نفسه .: والقوم محدقون به ، وأدخلوه على الملك ، ودخلت معهم فى الزحمة .. ووثب الملك قائماً على قدميه وصافحه وأجلسه بجانبه ، وأمر بإحضار الطعام والشراب . وخرج الجميع ولم يبق فى المكان إلا الملك وعقبة وبعض الخدم . وفى الظلام وقفت خارج السرادق أنظر إلى الداخل من فرجة بين القماش .: ورأيت أمامهما خنزيراً مشوياً وخمراً ورأيت الملعون يأكل ويشرب .. نعم والله رأيت عقبة « قاضى الإسلام » يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر ..

وشكا الملك من شدة مقاومتنا ، فقال له عقبة :

— طب نفساً وقرّ عيناً ، فإنى سآخذ لك حصن الموصل فى هذه الليلة بلا سيف ولا قتال .

— وكيف يتم ذلك ؟

— اعلم أيها الملك أن بينى وبين أمير هذا الحصن صداقة قديمة، وهو يعرف مالى من المنزلة عند الخليفة وعند الناس، فلا يسىء الظن بى ولا يخالف لى أمراً . .

— وما الذى عولت عليه ؟

— أليس عندكم ثياب عربية ؟

— لا بد أن يكون لدينا منها ، ماذا تصنع بها ؟

— صبراً . . تأمر أن يختار نحو ألف من الجنود يلبسون الملابس العربية ، وأنا أسير بهم نحو الحصن ، حتى أقف على بابه، وهم من ورائى ، وأنادى من فيه وأعرفهم بنفسى وأقول لهم إنى قد جئتكم بنجدة من بغداد ،

فيفتحون لى ويدخل الجنود ورائى ، ونقتل جميع من فى الحصن والمقدم عليهم الذى يدعى هياج الكردى .

* * *

قال متولى أمر المخزن للملك :

– ليس عندنا يامولاى ملابس عربية تكفى لألف . .

فقال عقبة :

– على بالقماش الأبيض نأخذ منه عمائم مثل عمائم العرب . .

وقلت فى نفسى : الحمد لله الذى ألهمنى أن أجىء هنا هذه الليلة . .

وتسللت من بين القوم مسرعاً إلى الحصن ، وأفضيت إلى رجالنا بالأمر ، ورتبنا أنفسنا لملاقاة عقبة ومن معه . .

وبعد قليل أقبلوا . . وطرق باب الحصن ، فصحت :

– من بالباب ؟

قال عقبة :

– لا بأس عليك أيها البطل المجاهد ، أبشر بما يسرك ، أنا عقبة بن مصعب قاضى الثغور . .

– أهلا وسهلا ومرحباً . . ومن هؤلاء الذين معك ؟

– إنهم فرسان العرب . أصحاب الطعن وأهل الغلاب ، أتيتك بهم حتى يعينوك على الأعداء .

وفتحت الباب ، وقلت : ادخل أيها القاضى ، فدخل ودخل وراءه من معه . . وأغلقنا عليهم باب الحصن ، وتناولناهم بالضرب والطعن ، حتى قتل أكثرهم واستسلم الباقون ، فقيدناهم كما قيدنا عقبة ، وعزمت على أن أحتفظ به حتى أسلمه للخليفة .

وفى الصباح أقبل ملك الروم فى جيشه الكبير ، وأحاطوا بالحصن ، فقاومناهم مقاومة شديدة ، ولم نمكنهم من اقتحام الحصن علينا ، فمكثوا

ساعة ، ثم رأيناهم يقيمون الأخشاب على أسوار الحصن ويلطخونها بالنفط ويلصقون بها قطعاً من الكتان منقوعة فى الزيت ، واشعلوا فيها النار . وعلا الدخان وامتدت إلينا النيران . .

وقلت لأصحابى :

ـ لقد قاتلنا بالأمس وانتصرنا ، واليوم ما بقى إلا الموت والشهادة ، وما وعد الله به المجاهدين الصابرين من الجنة التى أعدت للمتقين .

ورمينا أنفسنا على القوم . . فقتل منا من قتل ، واستطعت أنا وباقى الرجال أن نشق بسيوفنا صفوف الروم وننجو . .

ولجأنا إلى بغداد ، وانضممنا إلى حاميتها ، وقابلت الخليفة ، فحكيت له ما كان من عقبة ، فأبدى دهشته ، وبدا كأنه لا يصدق ، فقلت له :

ـ يا أمير المؤمنين ، لعلك تذكر رسائلى إليك فى حق محمد البطال وخصومته لعقبة ودفاعى عن هذا المنافق الخائن ، ولم أكن أعرف حقيقته ، والآن قد ظهرت لى هذه الحقيقة التى لا شك فيها . .

قال الخليفة :

ـ نعم تذكرت ذلك ، ولقد أوقع هذا المنافق بينى وبين عبد الوهاب ، وما كان لى أن أعاديه ، ولو لم يكن عبد الوهاب فى أسر الروم الآن لما طمع فينا ملوك الفرنجة ولكان قد قضى على الخوارج فى خراسان .

وحدث بعد ذلك أن خرج الخليفة إلى الحج ، ثم عاد ومعه عقبة . . قالوا إنه لما دخل مكة بلغه خبر شيخ عابد زاهد ، فأرسل إليه من يأتيه به ، فوجده عقبة ، وقال الناس هناك إنه يقيم فى مكة منذ أربع سنين . . وكان هذا من تدبيره مع الذين قالوا ذلك . . حتى يبرئ نفسه مما حكيته عند الخليفة . .

وكدت أجن . . ذهبت إلى مجلس الخلافة ، فرأيته هناك جالساً بالقرب من الخليفة . . وأشار الخليفة إلى ، فدنوت منه ووقفت بين يديه ، فقال لى متجهماً :

– كيف تقول ما تقول عن القاضى وهو فى مكة منذ أربع سنين ؟ ؟ ؟

اشتد بى الغضب ، ووجدت الكلام عبثاً . . وقلت فى نفسى : أحسن شىء أفعله أن أنهى أمر هذا المنافق وليكن بعد ذلك ما يكون . . . اتجهت إلى عقبة وأنا أجرد السيف ففر من أمامى وجرى إلى ستائر الحريم ، ولكنى أدركته ، وجاءت ضربتى على إبهامه فقطعته . ولحق الغلمان بى وأمسكوا سيفى من مقبضه ، فتركته لهم ، وهجمت على عقبه فأمسكوا بى ومن شدة غيظى مددت أصبعى وفقأت عينه اليمنى . .

وصاح الخليفة بغلمانه مشيراً إلىّ :

– خذوه واضربوه . .

فانهالوا علىّ ضرباً حتى أغمى علىّ ، وظنوا أنى مت . . فألقونى على باب القصر ، وتركونى ، وكان الوقت ليلا فلم يرنى أحد ، وأفقت من غيبوبتى ، وتسللت خارجاً من بغداد فى الظلام ، وسرت ليالى وأياماً حتى وصلت إلى هذا المكان . .

وقد عزمت أن أقضى بقية أيامى مجاهداً فى سبيل الله ، وسيطلبنى الخليفة إذا علم أنى لا أزال على قيد الحياة . . فإذا رأى الأمير عبد الوهاب أن يحمينى منه فإنى جندى من جنوده ، وإن رأى حرجاً فى ذلك فإن أرض الله واسعة ولن تضيق بى . ومنى عليكم السلام .

* * *

قال عبد الوهاب بعد أن أطلع على ذلك الكتاب :

– اعلموا ياقوم أن هياجاً الكردى فى ذمتى ، أحميه وأفديه بنفسى ، ومن مسه بمكروه فقد مسنى . .

قال عمرو بن عبد الله :

– لا ينبغى أن نحمى رجلا يطلبه الخليفة ، بل يجب أن ترسله إليه ، ولا بأس بعد ذلك أن تشفع له عنده .

ـ لن أتخلى عن هياج ما دمت حياً ، ولن أنقض تعهدى بحمايته ، ولن تصل إليه يد الخليفة أو غيره . .

قال عبد الوهاب ذلك وأعلن الرحيل إلى ملطية ، ومروا بمرج الديباج ، حيث لقوا هناك هياجاً الكردى ، فرحب به عبد الوهاب ، وضمه إلى رجاله .

وعندما وصلوا إلى ملطية وجدوا بها حاكماً من الروم ومعه حامية من الجنود ، فلم يلبثوا أن طهروها منهم ، فقتلوا من قاوم وأسروا من استسلم . ثم شرعوا فى تعميرها بعد ما خربها الروم .

- ١٩ -

جمع الخليفة مجلس الشورى وعرض عليه الحال وما صارت إليه الأمور من السوء ، إذ كان الجيش وأبطال المسلمين الذين تطوعوا للدفاع والجهاد يحاربو ن فى جبهتين : جبهة الروم الغزاة الذين اقتربوا من بغداد وأصبحوا يهددونها ، وجبهة « جرهم بن جرهان » الذى استفحل أمره فى خراسان ووردت الأنباء بأنه هو أيضاً يتحرك إلى بغداد .

وقبل أن يصل الخليفة إلى مكان اجتماع المجلس أخذ الأعضاء يتحدثون فقال أحدهم منذ زمن طويل لم نجتمع ، وقال آخر : إن الخليفة لم يدعُنا إلى الاجتماع إلا بعد أن تأزمت الأمور ، وقال ثالث : إنه دائما هكذا . . لا يتذكرنا إلا عند الشدائد . . ولو أشركنا معه من قبل، ما صرنا إلى مثل ما نحن فيه الآن ، وفضلا عن ذلك فإنه يحتضن رجلا منافقاً اسمه « عقبة » يقال إنه يتجسس للروم ، وقد اختفى ولا يدرى أحد أين هو الآن . . وارتفع صوت رجل حكيم يقول: لا ينبغى أن نتكلم هكذا . . نحن الآن أمام خطر يتهدد بلادنا وديننا ، وملوك الفرنجة قد اجتمعوا علينا ، ومهما كان مسلك الخليفة فإن الأمر يهمنا جميعا ولا يخصه وحده .

ودخل الخليفة ، وعرض الأمر ، وطلب الرأى ، وتكلم القوم ، وبدا لهم الموقف على حقيقته وخطورته وتعقده . . ثم هم ذلك الحكم بالكلام :

ـ أعرض عليكم حلا . .

اتجهت إليه الأنظار ، وتعلقت بما سيقول الآمال :

وقال الخليفة متلهفاً :

ـ هات ما عندك . .

قال الرجل الحكيم للخليفة :

ـ اكتب إلى جرهم بن جرهان وقل له : قد جعلتك فى الخلافة بدلا منى . . والبلاد تحت حكمك ، وأنا تابع لك . . أحكم فى طاعتك . .

وسرت همهمة بين المجتمعين تتخللها أصوات استنكار . . ولكن الرجل استمر يقول فى هدوء غير عابئ بتلك الأصوات :

ـ وقل له : وإنك بذلك أصبحت الآن المسئول عن الحدود والأمن ، وصار واجبك أن تسرع إلى ملاقاة الروم وتطردهم من بلاد العرب ، ويستتب لك الأمر . .

وصمت الرجل ، فقال الخليفة :

ـ ثم ماذا ؟

ـ سيندفع جرهم إلى الروم ويحاربهم ، وكل من يقتل من الفريقين كسب لك ، ولا بد أن ينتصر أحدهما على الآخر . وبعد ذلك تكون أمام عدو واحد قد أضعفه القتال مع الآخر .

* * *

اطمأن جرهم بن جرهان إلى رسالة الخليفة ، واتجه إلى جيوش الروم ، واشتبك معهم فى قتال ، وكان فى جيش جرهم رجل بدوى أسود عملاق يسمى « أبو الهزاهز » يقود فريقا من السود الشجعان ، وكان أبو الهزاهز يقاتل بالأشجار . . يخلع الشجرة ويضرب بها خصمه فيحطم عظامه ويخلطها بدمه . .

حمل القوم على القوم ، والتقت الطلائع بالطلائع ، وجردت السيوف

القواطع . وكان جيش الروم عشرة آلاف ، وجيش جرهم ثلاثة آلاف ، ولكن الروم لقوا منهم الأهوال . . رأوا فيهم قوماً حفاة عراة لا يعييهم القتال ولا يملون النزال ، وليس أحب اليهم من منازلة الأبطال .

خلع أبو الهزاهز أطماره ، حتى لم يبق على جسده إلا السروال ، وحمل على الروم كأنه جمل هائج أو بحر مائج . . زمجر وهدر ، وطار من عينيه الشرر ، فلم يثبت أمامه إنسان . .

ولما رأى ملك الروم ذلك حث أصحابه وأمر أن ينزل جميع الفرسان إلى الميدان ، فحملوا جميعاً على اختلاف أجناسهم : البنادقة ، والملافطة والزغاورة ، والأرمن ، والمغلبيط ، والبرغل . .

وعزز جرهم رجاله ، وهاج السود وفى مقدمتهم أبو الهزاهز وأعملوا فى الروم السيوف ، وسقوهم كئوس الحتوف .

وتراجع جيش الروم من شدة ما لقى من القوم ، فوقف أبو الهزاهز ينادى :

— أنا أبو الهزاهز ، البطل المناجز ، فهل من مبارز ؟

ولم يلبث أن أقبل عليه فارس رومى يدعى « قرقياس » وصاح به :

— دونك ياأسود والقتال .

ورمى الرومى إلى أبى الهزاهز بسلسلة حديدية ، ولم يشعر أبو الهزاهز إلا والسلسلة فى عنقه والرومى يشده وهو ثابت لا يتزحزح ، وحاول أن يتخلص منها فلم يقدر . وتجاذبا . . ولم يقدر أحد منهما على صاحبه . وشخصت إليهما الأبصار . .

وصاح رجل من السود صيحة الفرح والإعجاب . . إذ رأى أبا الهزاهز يقفز من على ظهر حصانه ويدخل تحت حصان قرقياس . . ويمسك بقوائمه والرومى يحاول أن يضربه بالسيف فلا يستطيع لأن السلسلة مثبتة فى وسطه وقد شده أبو الهزاهز حتى ألصقه بظهر الجواد . . وحمل أبو الهزاهز الحصان والفارس فوقه وسار نحو رجاله . .

ولما رأى الروم ما حل بفارسهم هجموا بأجمعهم ، ولكن جرهم ورجاله وسود أبى الهزاهز ثبتوا لهم ، ودارت رحى القتال بين الفريقين ، وقصد الروم إلى أبى الهزاهز كى يخلصوا منه قرقياس فأخذوا يوجهون إليه الضربات فيتلقاها بقرقياس . . إذ يعرضه لطعناتهم وهو يحمله . . وجعل قرقياس يصيح بقومه :

- خذوه بالأيدى ، وإلا قتلت أنا على هذه الحال . .

فأغمدوا سيوفهم ، وتكاثروا عليه ، فهجم عليهم السود بالسيوف ، وثقل الحمل على أبى الهزاهز فألقى به على الأرض بشدة ، فسقط ، قرقياس وحصانه صريعين . . وجرد سيفه وصار يضرب كل من يلقاه من الروم فيشطره شطرين . .

ومازالت نار الحرب تشتعل ، والرجال تقتتل ، حتى أقبل الليل ، فافترق الجيشان ، وصار كل إلى مضاربه وخيامه . .

* * *

جلس ملك الروم فى سرادقه على سريره المذهب ، واجتمع حوله ملوك الفرنجة وجعلوا يتحدثون عما لاقوه من أبى الهزاهز ، فقال ملك الروم : وحق المسيح لو أن فى عسكرى مثل هذا الأسود لملكت به الأرض . .

وكان عقبة المنافق قد تسلل من بغداد متخفياً حتى وصل إلى الروم ، وكان مع الملك فى ذلك الوقت ، فقال له :

- لاتحمل هماً أيها الملك . عندى حيلة عجيبة تمكنكم من القبض على هذا العملاق الأسود من غير عناء ولا تعب . .

قال الملك :

- وما حيلتك أيها القاضى ؟

- أحضر الحفارين فى هذه الساعة . .

ـ لماذا ؟

ـ مرهم أن يحفروا فى الميدان خندقاً ، ثم يغطوه بالقصب الهش ويجعلوا من فوقه التراب ، وفى صباح الغد تدق طبول الحرب ويتقدم من يطلب مبارزة أبى الهزاهز ، فإذا التقيا تظاهر الفارس بالعجز والخوف وفر من أمام أبى الهزاهز فى اتجاه الخندق ماراً بحافته ، وحين ذلك يتبعه أبو الهزاهز ويمشى بجواده فوق الخندق فيقع فيه ، ويفعل مثل ذلك عدد من فرسان الروم مع المقدمين من القوم ، ثم تهجمون عليهم وتشعلون النار من حولهم .

وتم ذلك ، ووقع فى الخندق مائة فارس منهم أبو الهزاهز وجرهم ، وقالوا لهم :

ـ ألقوا أسلحتكم وسلموا أنفسكم ، والا أحرقناكم . .

فألقوا أسلحتهم وسلموا أنفسهم ماعدا أبا الهزاهز ، فإنه أبى التسليم وقال لهم : أحرقونى ولاأرمى سلاحى . . فصاروا يرمونه بشرر النار وهو مصر على موقفه .

فلما رأى ملك الروم ذلك منه أعجب به وصاح بهم :

ـ دعوه ، لا تحرقوه ، إن مثل هذا لا يفرط فيه . . واحتالوا عليه حتى تخرجوه . .

وقال عقبة :

ـ إنه لن يطلع إلا إذا فعلتم ما أدلكم عليه . .

ـ ماذا نفعل بحق المسيح ؟

ـ أمسكوا أصحابه أمامه وارفعوا السيوف على رءوسهم ، وقولوا له إن لم تسلم نفسك رميناك برءوس أصحابك ، وعدوه بالأمان والمال .

ولما سمع جرهم إنذار الروم لأبى الهزاهز قال له :

ـ يا أبا الهزاهز ، إننا الآن فى موقف المغلوب ، فلا تكابر ولا تعاند وارحمنا بإلقاء سلاحك ، وإلا هلكت وهلكنا . .

فألقى أبو الهزاهز سلاحه وأخرجوه من الخندق ، وحاولوا أن يكتفوه فجعل يضربهم بيده وهم يفرون من لكماته القاتلة ، فصاح بهم الملك :

ـ أحيطوا به جميعاً وأمسكوه .

ففعلوا وأخذوه ، وغسلوا جسمه وألبسوه ثياباً فاخرة وقدموه إلى الملك فأجلسه إلى جانبه وأمر بإحضار الطعام له ، ووضع الذهب أمامه ، وقال له :

ـ اطلب ما شئت من بلاد الروم وأنا أعطيك ما تطلب ، على أن تكون معنا على أعدائنا .

استمع أبو الهزاهز إلى ما قاله ملك الروم ، ونظر حوله ، فرأى الذهب بين يديه ، وتحسس ثيابه الحريرية ، ولا تزال طيبات الطعام لها مذاق لذيذ فى فمه ، وتأمل نساء الروم السافرات ، وهش لمداعباتهن . فأغراه كل ذلك ورضى أن يكون مع الروم ، وقال للملك :

ـ إنى رضيت أن أكون معكم وأحارب أعداءكم ، ولكن على شرط

ـ وما شرطك ؟

ـ أن يكون معى رجالى السود وينالوا من الإكرام ما أنال .

ـ لك ذلك .

وفى الصباح استعدت جيوش الروم للتحرك إلى بغداد ، وقبل أن يتحركوا أخرجوا الأبطال المأسورين وعلى رأسهم جرهم بن جرهمان وقتلوهم جميعاً ، أما بقية جنود جرهم فقد فروا إلى بغداد وانضموا إلى المدافعين عنها ضد الروم .

- ٢٠ -

وصلت جيوش الروم إلى بغداد فى المساء ، وعسكروا على أبوابها حتى يهجموا عليها فى الصباح . وباتت بغداد ساهرة تستعد للدفاع وقد امتلأت بالمجاهدين الذين جاءوا متطوعين للجهاد من كل مكان فى بلاد العرب والإسلام

وعند الصباح هب الروم للزحف وإذا غبار يرتفع من خلفهم ، وينكشف الغبار عن فرسان يركضون بخيلهم ، قد اغبرت وجوههم وأصابهم الإعياء من السفر الطويل . . وأرسل ملك الروم يستطلع أخبار القادمين ، فإذا هم رسل من القسطنطينية . . تقدموا إلى الملك باكين منتحبين .

قال لهم الملك :

ـ ويحكم ماذا دهاكم ؟

قال مقدمهم :

ـ شهران يامولاى قضيناهما فى الطريق ونحن نتتبع آثاركم حتى وصلنا إليكم .

ـ ماذا وراءكم ؟

ـ أخذت البلاد وهلك العباد وخربت الديار ونهبت الأموال ..

ـ ويحكم .. من فعل هذا ؟

ـ العربى الأسود المسمى عبد الوهاب ..

اسودت الدنيا فى عين الملك ، وقلق غاية القلق ، والتفت إلى ملوك الفرنجة :

ـ ما عندكم من الرأى ؟

ـ الرحيل من ساعتنا هذه ، فما بقى لنا مقام والعرب فى بلادنا وعبد الوهاب يتحصن فى القسطنطينية ويجعلها له دار مقام ويهدد سائر البلاد .

* * *

بينما كانت جيوش الروم عائدة فى الطريق إلى بلادها ، جاءتهم الأنباء بأن عبد الوهاب رحل إلى ملطية وقد أسر كثيراً من الروم وأخذهم معه ، وفيهم سبايا من أهل ملك الروم . فلما سمع الملك ذلك جمع رجاله وقال لهم :

ـ لقد عولت على أن نذهب إلى ملطية ونخلص الأسرى من يد عبد الوهاب والحمد لله على أنه خرج من بلادنا ، فلو تحصن فى القسطنطينية لصعب علينا الأمر .

والتفت إلى أبى الهزاهز :

– فماذا أنت قائل ؟

قال أبو الهزاهز :

– أليس عبد الوهاب هذا عدوك ؟

– بلى ، إنه عدو خطير ..

– لا تحمل قلبك الهم .. لابد من قتله وتخريب بلده ..

* * *

علم أهل ملطية أن ملك الروم قادم إليهم فى جيشه الكبير ، فجمع عبد الوهاب رجاله وأبطال ملطية وقال لهم :

– إن ملك الروم قادم إلينا فى جيش جرار ، ومعه ملوك الفرنجة فى جيوشهم التى زحفت على الأمصار وخربت الديار ، ولن يتركوا ملطية حتى يستردوا أسراهم وسباياهم ، وأن الخليفة أصبح فى حالة من الضعف بحيث لا يستطيع أن يمدنا بالجنود والأموال .. فهل ترون أن نصالحه ونرد له أهله وعشيرته ؟

قالت ذات الهمة :

– ماذا تقول يا عبد الوهاب .. ؟ أنسلم لكلاب الروم .. ؟ اعلم يا ولدى أننا إذا عرضنا عليه الصلح فإنه يفسر ذلك بعجزنا عن حربه ويطمع فينا ..

وقال هياج الكردى :

– لأن نموت فى ميدان القتال خير من أن نعيش أذلاء ..

ولم يكن عبد الوهاب يريد المصالحة ، إنما كان يرمى إلى المشورة وأخذ الرأى واستشارة الهمم ، فلما سمع ذلك قال :

– إذن فلا مفر من القتال .

* * *

قال أبو الهزاهز لملك الروم :

ـ لا تجعل أحداً يقاتل معى من فرسانكم ، سأقاتل أنا ورجالى ، وسترى ما أفعله بهذا الذى يسمى عبد الوهاب ..

ـ إن قتلته فلك ما تريد من مال .. وأعطيك ما تشاء من بلاد تكون حاكماً وأميراً عليها ..

وركب أبو الهزاهز جواده وبرز إلى الميدان منادياً :

ـ يا أهل ملطية ، أخرجوا إلى فارسكم عبد الوهاب ، وليكن معه من يساعده ، ولو برزتم إلىّ جميعاً لطحنتكم بسيفى هذا ..

ونظر إليه أهل ملطية فراعهم منظره ، ولم يكن أحد منهم يعلم عنه شيئاً ، وبعد أن قال ما قال ، صال فى الميدان وجال ، وقصد إلى حامل العلم فصاح فى وجهه صيحة أرعبته وجعلت العلم يسقط من يده ..

وهم عبد الوهاب أن يحمل عليه ، فتعلقت به ذات الهمة مشفقة عليه وقالت :

ـ يا ولدى ، روحى لك الفداء ، لن يخرج إليه أحد غيرى ..

ـ هيهات .. إن ذلك من أكبر العار .. كيف يطلبنى رجل إلى القتال ويخرج له غيرى .. ؟ لا يا أماه .. لا تخافى على ..

ولما رأت إصراره قالت وهى تغالب شفقتها :

ـ ابرز إليه والله معك ..

التقى عبد الوهاب وأبو الهزاهز ، فكانا كأنهما جبلان يلتقيان ، وثار حولهما الغبار ، واحتجبا عن الأبصار ، وتطاولت إليهما الأعناق ، وشخصت نحوهما الأحداق .

وأجهد كل منهما الآخر دون أن ينال منه منالا ، وكلّ الجوادان ، فقال أبو الهزاهز :

— يا ابن ذات الهمة ، ما كنت أحسب أن يظهر منك هذا .. ولقد أعجبتني شمائلك فى النزال ..

فنظر إليه عبد الوهاب ولم يتكلم ، فقال :

— يا أمير ، إن الخيل قد كلت تحتنا وملت .

— ما تريد منى ؟

— ننزل عن الجوادين ونتقاتل راجلين .

ونزلا ، واستأنفا القتال راجلين ، وكانت لهما وثبات وقفزات ، وأبدى كل منهما من ضروب الشجاعة ما حار منه الآخر .. ثم نظر أبو الهزاهز إلى عبد الوهاب فرآه معتدل الجسم ، ليس ضخماً ولا عملاقاً مثله ، قال فى نفسه : لو أمسكته باليد وألقيته على الأرض لصرعته .. ثم قال له :

— أيها الأمير ، هل لك فى الصراع وقوة الزند والباع ؟

— أجبتك إلى ما تريد ..

ورمى كل منهما سلاحه ، وتخففا من بعض ملابسهما ، وشرعا فى الملاكمة والمصارعة . وجزع قوم عبدالوهاب عليه عندما رأوهما كذلك ، فعبدالوهاب لا يزيد حجمه عن فخذ أبى الهزاهز . . . وأراد أبو الهزاهز أن يقلع عبدالوهاب من الأرض ، فوجده كصخرة لاتحول ولا تزول واستجمع كل قوته وراح يجاهد نفسه ، حتى أصابه الإعياء ، وشعر بالضعف أمامه . . وتعجب كيف يقتلع الشجرة ويعجز عن هذا الرجل وهو كفرع من الشجرة . .

ثم انتهز عبد الوهاب فرصة إعياء أبى الهزاهز وأسرع فحمله وسار به نحو معسكر قومه ، فارتفعت أصوات العرب بالتكبير . . فهاج أتباع أبى الهزاهز السود وهجموا يريدون خلاصه من يدى عبد الوهاب وهجم معه جنود الروم . وأحاط سود عبدالوهاب بالحامل والمحمول ، واشتبك جيش الروم بالعرب فى أشد قتال وأقوى نزال ، وكانت ذات الهمة أسرع من وصل إلى عبد الوهاب وتصدت للمهاجمين وقالت لقومها : احموا ظهرى من سود أبى الهزاهز ، وأنا أكفيكم جنود الروم .

وعملت الصوارم ، واشتدت العزائم ، وطارت الرءوس والجماجم وثار الغبار كالغمائم . وظلت رحى الحرب دائرة حتى أمسى المساء ، فافترق الجيشان ، وخلا الميدان ، وذهب كل فريق إلى مضاربه .

* * *

أبو الهزاهز يعجب من نفسه . . إنه يشعر إزاء عبدالوهاب بضعف لم يشعر بمثله قط أمام أحد . . وقد رأى منه ما لم يره من خصم نازله . . لقد تناول معه العشاء فى خيمته وقدم له عبدالوهاب طيبات الطعام وهو يقول له : كل يا أبا الهزاهز فأنت ضيفنا . .

هل أنا ضيف حقاً أم عدو أسير . . ؟ إنى مقيد الرجلين ولكنى مطلق اليدين . . هذا هو يقوم ويصلى . . وهذا سيفه معلق . . لماذا لا أتناول هذا السيف وأضربه ضربة قاتلة .. حسن ، سأضربه بسيفه وأخلص نفسى ، وأضرب من يعترض طريقى . .

وأخذ السيف من وراء عبد الوهاب ، ووقف على رأسه وهو ساجد . ولكن يده جمدت على مقبض السيف . . . خيل إليه أن يداً أقوى من يده تمسك به وصاحب اليد يزجره :

ياهذا . . ألا تخجل ؟ ؟ ألم تأكل معه الآن ؟ ؟ أولم يكرمك ؟ ؟ أولم يقل لك أنت ضيفنا ؟

ووقف جامدا ذاهلا . . واستدار عبدالوهاب بعد أن ألقى السلام خارجا من الصلاة :

ــ يظهر أنك لست أهلا للإحسان . .

وهم عبدالوهاب أن يأتى بسيف آخر . . ولكن أبا الهزاهز يناديه : أيها الأمير لست بحاجة إلى ذاك . . لقد دافعت عن نفسك بكرم شمائلك .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ إن معروفك وقف حائلا بينى وبينك . .

سكت عبدالوهاب وقد أحس بأنه كسب الرجل .. ثم قال :

– كان هذا ظني بك .. اعلم يا أبا الهزاهز أن الفارس الشجاع لابد أن يكون ذا مروءة حتى مع خصمه ..

– صدقت أيها الأمير ..

وخيم صمت قطعه أبو الهزاهز :

– أيها الأمير ، لى إليك حاجة ...

– مقضية بإذن الله .

– فك قيدى ، إنى أريد أن أخاطبك فى « أمر » مخاطبة الحر للحر ..

وفك قيده دون تردد ، فقال أبو الهزاهز :

– أحضر لى أصحابك وأيقظ النوام من كبراء قومك ..

* * *

قالت ذات الهمة لولدها عبدالوهاب .. :

– ماذا وراءك .. ولماذا جمعتنا الآن ؟

– أبو الهزاهز طلبكم ..

قال محمد البطال وهو ينظر متفحصاً إلى أبى الهزاهز :

– ماذا تريد ياأبا الهزاهز ؟

– أريد أن تسألوا هذا الأمير (مشيراً إلى عبد الوهاب) أن يقبلنى فى رجاله وأشهد كم أن أكون وفياً مخلصا له أبد الدهر ..

قال عبدالوهاب :

– مرحبا بك ياأبا الهزاهز ..

وفرح الجميع ، وعدوا ذلك أول خطوة فى الانتصار على الروم .

ووضعت خطة ، دبرها البطال ، ووافق عليها الجميع ، وأبدى أبو الهزاهز حماسته لتنفيذها ..

* * *

فى منتصف الليل وفى الظلام البهيم كان ألف من السود التابعين لعبدالوهاب يسيرون وراء أبى الهزاهز بقيادة « سماق » وجرى حديث خاطف بين الفارسين الأسودين، عرف منه أبو الهزاهز أن عبدالوهاب يؤاخى السود ويحلهم من نفسه محل الأهل، ولا يضن عليهم بأى شىء، ولا يلجأ إليه رجل أسود إلا حماه، وإن كان رقيقاً اشتراه وحرره، وضمه إلى رجاله. ولا يغضبه شىء مثل ما يغضبه أن يتعالى عليهم أحد من سادات القبائل.

ولما اقتربوا من معسكر الروم قال أبوالهزاهز :

ــ اكمنوا هنا وراء هذا التل حتى أمضى إلى أصحابى . .

وسار إلى أصحابه، فتواثبوا إليه فرحين ظائطين، فقال لهم :

ــ الزموا السكوت حتى نتحدث . .

قالوا :

ــ أخبرنا كيف كان خلاصك من أيدى العرب ؟

ــ مارأيت قط مثل هذا الرجل الذى أسرنى . . لا فى قوته ولا فى شجاعته ولا فى مروءته، أحب الناس إليه السود، يجاهد بهم ويعطى لهم كل ما يكسبه، لا يدخر لنفسه درهماً أو ديناراً . .

ــ ولكن هل عنده ذهب كالذى عند ملك الروم ؟

ــ اسمعوا، إن الروم لولا حاجتهم إلينا لما أبقوا علينا، إننا معهم خدم، يسوقوننا إلى القتال مثل الغنم . .

ــ قال أحدهم :

ــ وعبدالوهاب أسود مثلنا . .

وقال آخر :

ــ وعربى . . .

وقال ثالث :

ــ كيف غاب عنا ذلك ؟

وقال رابع :

– لقد تورطنا مع الروم . . نسينا أنهم أعداؤنا وقد خرجنا لحربهم . .

فقال أبو الهزاهز :

– لقد غلبنا على أمرنا ، وأغرونا ، وقاتلنا معهم كالمأجورين . . ومنذ اليوم سنقاتل مع قومنا العرب والسود . . هل أنتم موافقون ؟

صاحوا جميعاً صيحة الفرح . . فقال لهم :

– والآن ، ارفعوا أصواتكم وأعلنوا فرحكم بقدومى . .

سمع الملك زياط السود ، فسأل عما هنالك ، فقيل له : إن أبا الهزاهز رجع سالما ، وأتباعه فرحون به ، وهو يتأهب للقدوم إليك . .

سأله الملك بعد أن هنأه بالسلامة ، وأجلسه بجواره :

– كيف نجوت من العرب ؟

– لقد ذبحت عبدالوهاب والبطال وذات الهمة . . .

دهش الملك وابتهج وقال متلهفا :

– كيف استطعت ذلك . . قص على ما حدث ؟ ؟

– عندما لاقيت عبدالوهاب فى الميدان تظاهرت بالعجز أمامه ، حتى أسرنى وأخذنى فى حراسته ، وكنت مقيد الرجلين مطلق اليدين ، وانتظرت حتى نام ، فأخذت سيفه وذبحته به . . ثم ذهبت إلى ذات الهمة وذبحتها ، وكذلك البطال . . واستيقظ بعض الحراس وحاولوا اللحاق بى فقتلت من اعترض طريقى ، وجعلت أعدو حتى خرجت من مضاربهم . .

* * *

عاد أبو الهزاهز إلى سملق ومن معه فأخبرهم أن رجاله وافقوا على الانضمام إلى العرب ، وسار بهم إليهم واختلطوا بهم ، وصاروا كأنهم فريق واحد .

وفى الصباح أمر الملك بالركوب والتحرك إلى ملطية . . ولم تفتح أبواب البلد ولم يخرج منها أحد للدفاع ، فأيقن الروم بصدق أبى الهزاهز . . وأن ملطية حقاً قد خلت من حماتها الذين قضى عليهم أبوالهزاهز . .

ثم فتحت أبواب المدينة ، وخرج منها رجال لم يظهر فيهم عبدالوهاب ولا البطال ولا ذات الهمة . واقتحم الروم الأبواب ومن خلفهم أبوالهزاهز والرجال السود . .

وبغت الروم . . إذ رأوا عبدالوهاب والبطال وذات الهمة ومن معهم من الأبطال العرب – وكانوا متنكرين – يستقبلونهم بالسيوف والرماح صائحين : الله أكبر . .

وجاء الهتاف كذلك من الخلف : الله أكبر . .

ووقع الروم فى الفخ بين أبى الهزاهز ورجاله من ورائهم وبين عبدالوهاب وجيش العرب من أمامهم . . وقعوا بين شقى رحى طحنتهم طحناً . . وأيقن ملك الروم أن الحيلة تمت عليه وأن أبا الهزاهز خدعه وانضم إلى العرب فطلب الفرار هو ومن معه . . منهم من نجا ومنهم من قتل ، ومنهم من أسر وتركوا أموالا كثيرة غنمها العرب ، وزعت على الأبطال والمجاهدين ، وخص أبا الهزاهز وأتباعه منها ما أغناهم وأقر أعينهم ، فأقاموا مع العرب فرحين ، وصاروا وإياهم إخواناً متحابين . .

– ٢١ –

فرح أهل بغداد برجوع جيوش الروم عن بلدهم ، وأطمأن الخليفة بزوال الخطر الذى كان يهدد الخلافة ، وقد جاءه الجواسيس بأنباء الروم إذ قالوا له إن عبدالوهاب تخلص من أسر الروم وهاجم القسطنطينية وتغلب على من فيها ، وأن ملكها لما علم بذلك قلق على أهله وملكه فعاد أدراجه إلى بلاده . .

ثم جمع الخليفة مجلس المشورة ، واستقر الرأى على أن يتحرك الجيش والمجاهدون المتجمعون فى بغداد إلى جهة بلاد الروم حتى لا تعود جيوشهم مرة ثانية إلى الهجوم . ورأى الخليفة أن يقود الجيش بنفسه . .

ثم جاءت الأنباء بما حدث فى ملطية ، فسر الخليفة وشعر بالتقدير العظيم لعبدالوهاب وبقية أبطال العرب هناك ، وخطر له أن يعدل خطته ويقصد إلى ملطية ويسترضى عبدالوهاب ويضمه ومن معه إلى جيش المجاهدين ثم تتجه قوات العرب جميعاً إلى بلاد الروم .

ولكن . . . عقبة ظهر . .

ـ السلام على الحضرة العلية والطلعة البهية . .

رد الخليفة :

ـ عليك السلام ياقاضى الإسلام ، أين كنت طيلة هذه الأيام ؟

قال عقبة وهو ينظر إلى الخليفة بعينه السليمة الوحيدة :

ـ كنت ياأمير المؤمنين أحج إلى بيت الله الحرام . . وهناك دعوت الله الذى أرسل الطير الأبابيل على أصحاب الفيل أن يزيل الغمة عن بلاد الإسلام وينصركم على الفرنجة الكفرة . . وقد حمدت الله تعالى أن استجاب الدعاء وانقشع البلاء . .

ـ أنا على أهبة الرحيل إلى الثغور . .

ـ فى سلامة الله وتوفيقه ونصره وتأييده . .

ـ هل لك أن تصحبنا ؟ ؟

ـ هذه غاية الشرف ياأمير المؤمنين . .

وأخذ عقبة يعبث بلحيته ، وبدا عليه أنه يريد أن يفضى بشىء ولكنه يتردد . .

ـ ولكن . . هل علم أمير المؤمنين أن . .

وسكت . . فقال الخليفة يستحثه على الكلام :

ـ ماذا . . .؟ تكلم . .

ـ عبد الوهاب ياأمير المؤمنين . .

ـ ماباله ؟

ـ يجير . . . « هياج الكردى » . . وهو عنده فى ملطية . .

ـ أسود بنى كلاب يجير على . . من أنبأك بذلك ؟

ـ ولدى مصعب كان هناك وجاءنى بهذا الخبر .. وقال : إن الأمير عمرا نصحه ألا يحمى رجلا يطلبه أمير المؤمنين وأن الواجب أن يبعث به إلى خليفة المسلمين فغضب وتفوه بكلام خطير ..

ـ ماذا قال الأسود الزنيم ؟

ـ قال إنه لا يسلمه أبداً ، ولو أصر الخليفة على طلبه فبينى وبينه السيف ..

صاح الخليفة :

ـ الويل له ..

وبتأثر وصوت أقل ارتفاعاً :

ـ إنى والله لا أدرى أيّنا الخليفة .. ؟

ـ لا تعبأ به يا مولاى ، ما هو إلا تابع من أتباعك وأحد رعيتك وإن كان قد ركبه الغرور ..

ـ حقاً لقد اغتر بانتصاراته واعتز علينا حتى جاوز الحد . . لابد من تأديبه ووقفه عند حده .

ـ ما على أمير المؤمنين إلا أن يرسل إليه من قواده من يؤدبه ويأتى به مكبلا صاغرا ..

ـ لا ، سأذهب إليه بنفسى (وصاح) فليمض الجيش فى التأهب للرحيل فقد عولت على أمرين : أن أطلب عبد الوهاب وهياجاً الكردى فى أى موضع هما فيه ، فإذا فرغت منهما قصدت إلى ملك الروم ومن معه لأحول دون أطماعهم فى بلاد الإسلام ، وسأثبت لأمثال عبد الوهاب أنى أستطيع أن أرد كيد الأعداء دون حاجة إليهم ..

* * *

وردت إلى الأمير عمرو من الخليفة رسالة عاجلة على جناح حمامة من حمام الزاجل ينبئه فيها بقدومه فى جيش كبير ، واستعد عمرو لاستقبال الخليفة وجيشه وقد أسف فى نفسه .. لو تقدم الخليفة أياماً .. ولكنه جاء بعد فوات الأوان ..

نعم، فإن عبد الوهاب وذات الهمة والبطال وجميع الرجال والأبطال من السود وبنى كلاب ومن رغب فى الجهاد من بنى سليم ومن ورد للجهاد من قبائل نجد والحجاز - كل هؤلاء رحلوا إلى بلاد الروم فى أعقاب ملوك الفرنجة المنهزمين حتى لايتجمعوا ويعودوا إلى غزو بلاد العرب كدأبهم الذى دأبوا عليه ..

ووصل الخليفة إلى ملطية ومعه جيش المجاهدين من العراق ، وعلم برحيل عبد الوهاب والمجاهدين معه إلى بلاد الروم ، فشعر فى قرارة نفسه بالارتياح لأنهم سيكونون قوة عربية كبيرة فى وجه الأعداء ، وأمل أن تنضم هذه القوة إلى جيشه ، فيهزموا الفرنجة ويؤدبوهم ، حتى لا يفكروا فى الإغارة على بلاد العرب بعد ذلك ..

ولكن ... ما أن استمع إلى دسائس عقبة حتى تحولت مشاعره :

- إن عبدالوهاب يستهين بالخلافة ويكسر هيبتها .. لقد اغتر بانتصاراته ، وإذا ترك وشأنه فلابد أن يطمع فى ... الخلافة ..

هكذا قال عقبة للخليفة وشبح « هياج الكردى » يهدد حياته .. لقد أصبح لا يخشى شيئا مثل هياج الكردى ... عبد الوهاب والبطال وذات الهمة يتصرفون بعقل ويحسبون حساب الخليفة ، أما ذلك « الهياج » فهو مجنون .. منذ رآه مع ملك الروم وهو مجنون ..

ولحظ عمرو تغير سحنة الخليفة عندما سمع كلام عقبة ، فأراد أن يلقى حطباً على النار :

- لقد حاولت يا أمير المؤمنين أن أثنى عبد الوهاب عن حماية الكردى

وقلت له إنه لا يصح أن يجير على الخليفة ويحمى رجلا يطلبه ، وأن أمير المؤمنين سيغضب ، فرد باستهانة قائلا :

وسكت عمرو ، فقال عقبة :

ـ ماذا قال الأسود الزنيم ؟

ـ قال إن أحداً مهما كان لا يستطيع أن ينال هياجاً الكردى بسوء ما دام حياً ..

وشعر عمرو بمرارة خفية فى نفسه وهو يقول ذلك .. أليس هو الأمير الذى ولاه الخليفة على ملطية والثغور ؟ فلم إذن لم يقبض على هياج الكردى ويرسله إلى الخليفة ..؟ ولكنه لا يستطيع .. إنه لا يدرى أيهما الأمير المولى .. هو أم عبد الوهاب ..

لعن الله حب الرياسة وأطماع الرياسة ..

وعقبة يعرف موطن الداء من نفس الخليفة وعمرو ، وما عليه إلا أن يلمسه فيتحرك ..

وتحرك جيش الخليفة ومعه عمرو ، نحو بلاد الروم .. وقال أهل الرياسة للمجاهدين : إن الهدف هم الفرنجة أعداء العرب ، وقالوا لأنفسهم : إن هناك هدفاً آخر هو عبد الوهاب ... أما عقبة فأهم ما يطلبه رأس هياج الكردى ..

- ٢٢ -

جاءت الجواسيس إلى ملك الروم بخبرين متعاقبين : يقول الخبر الأول : إن عبد الوهاب وجيشه وصلوا إلى حصن الكواكب القريب من القسطنطينية واستولى عليه بعد أن تغلب على حاميته ، والخبر الثانى يقول : إن الخليفة وصل بجيش كبير إلى مرج الديباج وعسكر فيه .

احتار الملك فى أمر هذين الجيشين .. ما قصدهما ولماذا هما مفترقان .. ثم بدأت الأمور تتضح له بعض الشىء إذ جاءه نبأ آخر يقول إن عبد الوهاب عصى الخليفة ، والخليفة جاء فى طلبه ..

كان الخبر الأخير سارا ، وقد جمع ملك القسطنطينية باقى ملوك الفرنجة وأفضى إليهم به فرحاً مبتهجاً .. واستقر رأيهم جميعاً على أن يستفيدوا من الخلاف بين العرب وينصروا الفريق الذى يستنصر بهم على الآخر ، ثم يفرغوا للفريق الأول ..

وبعد أيام وصل إلى عبد الوهاب كتاب من ملك الروم يسأله فيه عما يريد من القدوم إلى بلاد الروم.. إن كان يريد مالا أعطاه ، وإن كان يطلب أن ينصره على الخليفة فله ما يطلب .

قال عبد الوهاب للرسول الذى أتى بالكتاب : أبلغ مولاك أننى دخلت إلى هنا ومعى من المال ما يقوم بى وبأصحابى .. أما الأمر بينى وبين الخليفة فإنه يخص العرب وحدهم والذى أريده الآن من الملك أن يرد إلينا جميع الأسرى الذين أسرهم من بلاد العرب ، فإن أجابنى إلى ذلك هادنته .

* * *

جمع ملك الروم باقى ملوك الفرنجة وخواص دولته وشاورهم فى رد أسرى العرب ، فاتفقوا على أن يردوهم ويتظاهروا بالمهادنة ، على أن يعملوا فى الوقت نفسه للاستعداد وجمع المحاربين لمقاومة العرب .

ولما جاءت الأسرى كان أول شىء فعله عبد الوهاب أن فصل الذين أسروا فى موقعة الموصل وغيرها من بلاد العراق وأرسلهم إلى معسكر الخليفة .

قال عقبة للخليفة :

ـ قد علمت أن عبد الوهاب هادن ملك الروم واتفق معه على رد الأسرى ، وذلك لكى يتفرغ لعصيان أمير المؤمنين و ...

ولم يستطع عقبة أن يتم حديثه ، فقد فوجىء بما أخرس لسانه وأرعبه وجعله يقفز من مكانه ويقبع وراء الخليفة محتمياً به .. فقد دخل « هياج الكردى » .. اقتحم سرادق الخليفة ولم ينتظر أن يؤذن له ..

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين ..

دهش الخليفة ، وقال مطمئناً إلى ما بدأ به « هياج » من السلام :

ـ عليك السلام .. ماذا وراءك ؟ ؟

ـ جئت مستسلماً لك يا أمير المؤمنين (بعد صمت ساد هنيهة) لا أريد أن أكون سببا للفرقة بين العرب . لقد نذرت نفسى للجهاد ، وفى سبيل الجهاد الذى يستلزم جمع القوى واتحاد الكلمة جئت مجاهداً .. ولتفعل بى ما تشاء .. (بعد صمت آخر) ليس لى إلا روح واحدة ستذهب يوماً .. خذها الآن إن شئت أو أبقها لأمر آخر إن أردت ..

* * *

أرسل الخليفة إلى عبد الوهاب يشكر له رد الأسرى ، ويقول إنه قد عفا عن هياج الكردى ويطلب إليه أن يقدم عليه وقد عفا الله عما سلف ..

قال محمد البطال لعبد الوهاب :

ـ علام عولت يا أمير ؟

ـ سأمضى إليه ..

ـ ولكن عقبة عنده .. وهو رجل داهية يوقع بالشر دائماً ، ولن تصفو العلاقة بيننا وبين الخليفة ما دام يحتضن هذا الرجل ويستمع إليه ..

ـ وماذا ترى ؟

ـ أرى أن تطلب منه تسليمه ..

ـ أترى الأمر بهذا اليسر ؟

ـ إن هناك ما يدينه ويثبت خيانته ..

ـ أتعنى شهادة هياج الكردى من حيث رؤيته إياه مع ملك الروم ؟ لقد دبر ما يبطلها بذهابه إلى مكة كما تعلم ..

ـ والقنديل .. أنسيت القنديل الذى نقش الروم اسمه عليه ؟؟

ـ سيقول أى شىء فى سبب ذلك .. خلاف الحقيقة ..

وسكت البطال هنيهة ثم قال :

ـ الحق أن هذا الرجل هو الداء الذى أعيا المداوى ..

وقال ضيغم بن عبد الوهاب :

ـ دواؤه عندى ضربة من هذا (وأشار إلى سيفه ثم التفت إلى والده) اطلب من الخليفة أن يسلمه فإذا لم يفعل فلا كان عقبة ولا كان الخليفة ..

قالت ذات الهمة :

ـ لا يا ولدى ، هذا إسقاط لحرمة الخلافة ..

وقال أبو الهزاهز :

ـ أنا لا أعرف لى خليفة ولا أميراً غير عبد الوهاب ..

وقالت ذات الهمة لعبد الوهاب :

ـ امض إليه يا ولدى ، إنا نسالمه ما دام يمد لنا يد المسالمة ، لا أطماع لنا غير إعلاء كلمة العروبة والإسلام ..

وقال البطال :

ـ ولكن أليس من المحتمل أن تكون هناك مكيدة ؟؟

أجاب عبد الوهاب وهو يضع يده على سيفه :

ـ لا تخف على يا أخى ..

وصاح ضيغم :

ـ والله إن مس أحد أبى بسوء لأردينه بسيفى هذا ..

وقال أبو الهزاهز :

ـ خذنى معك يا أمير ..

وركب عبد الوهاب إلى الخليفة وركب معه أبو الهزاهز ، وعندما اقتربا من سرادق الخليفة رأياه خارجاً على جواده ، فترجل عبد الوهاب وترجل أبو الهزاهز . وقال الخليفة وهو لا يزال راكباً :

ـ أهلا بك يا عبد الوهاب ..

ومد يده إليه ، فأقبل عليه عبد الوهاب يصافحه .. ودنا أبو الهزاهز منهما وقامته تعلو حتى حاذى رأسه ـ وهو راجل ـ رأس الخليفة راكباً .. وقال متجهاً إلى الخليفة :

ـ ياذا العمامة الكبيرة .. لماذا لا تترجل لعبد الوهاب كما ترجل لك ؟؟

فأسرع عبد الوهاب :

ـ اسكت يا أبا الهزاهز ، هذا أمير المؤمنين (والتفت إلى الخليفة) إنه رجل على الفطرة يا أمير المؤمنين ..

قال الخليفة مبتسماً :

ـ لا عليه .. (لأبى الهزاهز) قد سمعت بشجاعتك يا أبا الهزاهز .

واقترب منه بجواده وربت كتفه .. فأطرق أبو الهزاهز خجلا ..

- ٢٣ -

وصلت أنباء الاتصال بين معسكر الخليفة ومعسكر عبد الوهاب إلى ملك الروم ، فجمع ملوك الفرنجة وقال لهم : إن العرب قد تجمعوا واتحدوا للهجوم علينا ، ويظهر أنهم قد أرادوا أن يخدعونا أول الأمر فجاءوا فى صورة فريقين متنازعين ، واليوم قد انكشف الأمر باتصالهم ، وقد علمت أنهم وحدوا قيادتهم وأسندوها إلى فارسهم الأسود المسمى عبد الوهاب .. والآن ماذا ترون ؟ هل تظل جيوشنا فى المدينة مستعدة للدفاع أم تخرج إليهم وتهاجمهم قبل أن يحاصرونا ؟

ودارت المناقشة بين مؤيد لهذا الرأى وذاك .. حتى تغلب الرأى الثانى وقر قرارهم على مناوشة العرب فى مرج الديباج وحصن الكواكب الذى استولى عليه عبد الوهاب ، والعمل على استرداد هذا الحصن .

* * *

فى صباح يوم من الأيام نظر العرب فرأوا من ناحية القسطنطينية غباراً يسد الأفق و أشباحاً من خلاله تتحرك نحوهم ، فدقوا طبول الحرب ، ونادى عبد الوهاب :

ـ هيا ياأبطال العرب ، إلى الطعن والضرب ..

واصطف الفريقان ، وخرج من صفوف الروم فارس ينادى بأعلى صوته

– يامعاشر العرب ، هل تعرفوننى ؟ إن فيكم من يعرفنى بلاشك . . فأنا ملك المغلبيط الذى هزمكم فى دياركم وأسر رجالكم وسبا نساءكم . . ولم يسعدنى الحظ بلقاء فارسكم الأسود . . وأريد اليوم أن أسعد بلقائه فلا يخرج لى سواه . . فإنى شديد الشوق إلى مرآه . .

فبرز إليه عبدالوهاب على جواد ضامر ، وعليه درع مانع ، وبيده سيف قاطع ، وحمل كل منهما على الآخر والتحم الفارسان وبعدا عن الأنظار ، وحجبهما الغبار ، ورأى ملك المغلبيط من عبد الوهاب ماحيره وأعجزه فأراد أن يخدعه بالحيلة فصاح به :

– أيها الفارس ، أبرزت لى وحدك أم عجزت عنى فجاء قومك يساعدونك مُرهم أن يرجعوا إن كنت ترى نفسك نداً لى وأهلا لقتالى . .

فنظر عبدالوهاب خلفه . . وبسرعه أدرك الخدعة فلم يكن هناك أحد . . وكان خصمه قد سدد إليه ضربة أودعها كل قوته ، فمال عنها ، فانكفأ ملك المغلبيط على وجهـــه فى اتجاه ضربته وطار السيف من يده ، فقال له عبد الوهاب :

– خذ سيفك وانهض إلى . . فلن أقتلك إلا واقفاً مواجهاً . .

فتخاذل ملك المغلبيط ، ولكنه تمالك وتناول السيف وأسرع إلى الضرب مغيظاً محنقاً فقال له عبدالوهاب وهو يطعنه الطعنة القاتلة :

– لا تغضب . . خذ هذه دواء لحماقتك . .

ولما رأت جيوش الفرنجة فارسها قد سقط فى الميدان قتيلا حملوا . . وقابلهم فرسان العرب بالسيوف والرماح . . ولم يزل السيف يعمل والرجال تقتل من الجانبين ونار الحرب تشتعل ، إلى أن فرق بينهم الظلام ، فرجعوا إلى الخيام . وقد فقد كل من الفريقين كثيراً من رجاله بين قتيل وأسير . وكان ممن أسرهم الروم : محمد البطال وضيغم بن عبدالوهاب وهياج الكردى وبعض الأبطال القادمين مع الخليفة من العراق .

* * *

بينما كان الجيش العربى يستعد لا ستئناف القتال فى صباح اليوم التالى إذا «الصافى» يقبل من جهة معسكر الروم على عبدالوهاب مسرعاً ويقول :

ــ أيها الأمير ، قد أتى فى معسكر الروم فتى من بلاد المغلبيط يسمونه « سيف الروم » وهو فارس شديد وبطل ضنديد . ويقال إنه متحمس للقائك ويريد أن يثأر منك لملك المغلبيط .

فقال عبدالوهاب :

ــ مرحباً به . .

ثم صاح فى رجاله :

ــ هيا يارجال إلى الحرب والنزال .

ثم أقبل جيش الروم ، وبرز منه « سيف الروم » وصاح بصوت حاد :

ــ أين الفارس الأسود المسمى عبدالوهاب ؟ ؟

أجاب عبدالوهاب ، وهو يتقدم إليه مسرعا بجواده :

ــ هذا هو الفارس الأسود الذى تطلب ياغلام . .

ــ إنى أريد أن أجرب نفسى معك فى هذا اليوم . .

ــ أخشى أن تؤدى بك التجربة إلى الهلاك (وهو يتأمله) ولكنك لاتزال طرى العود وأنا مستعد أن أهب لك حياتك إن راجعت نفسك وثبت إلى رشدك . .

ــ سترى منى ما يهولك . .

قال ذلك « سيف الروم » وراح يختال بجواده ويجول فى الميدان ، وعبدالوهاب ينظر إليه فى دهشة ويشعر نحوه بشعور غريب . . ثم أقبل « سيف الروم » على عبدالوهاب ، وحمل كل منهما على صاحبه ، وتقاربا وتباعدا . . وغابا عن الأبصار فى كر وفر . . ثم هوى عبدالوهاب بحسامه على « سيف الروم » فألقى هذا نفسه على الأرض ووقعت الضربة على سرج الجواد فقدّته . . . ورأى عبدالوهاب فى ذراع « خصمه » دملج فضة منقوشاً عليه اسمه . . فصاح به مذهولا :

– من أين لك هذا الدملج ؟

واشتد ذهوله عندما أجابه :

– إنه مهدى إلى منك . .

وسمع عبدالوهاب صوت « خصمه » فى هذه المرة على طبيعته . سمعه رقيقاً . . ذهبت منه الحدة التى كان يصطنعها .

– ميرونة ؟ ؟

وكشفت القناع عن وجهها . . وابتسمت له، فتأملها سعيدا مبتهجا وهو يقول :

– هكذا كان لقاؤنا الأول . .

– نعم ياحبيبى ، هذه هى المرة الثانية التى أسعى فيها إلى لقائك فى الميدان . . .

وفجأة تغير وجهه وحول عنها بصره . .

– قتلت زوجك بالأمس . .

– لم يكن زوجى . .

تطلع إليها وهو يقول :

– كيف ذلك ؟ ألم يتزوج منك ؟

– كيف أتزوج وأنا متزوجة ؟ أنسيت أننا زوجان ؟

– لا، لم أنس ، ولكن .

– أفهم ما يجول بنفسك ، اطمئن ، لم أعاشره معاشرة الأزواج ، لقد أخذته بالحيلة وبالحزم أحياناً ، . إنه أولا لم يمكث معى كثيراً ، فقد ذهب مع الحملة الرومية إلى بلاد العرب وقلت له إننا لن نكون زوجين إلا بعد أن أقتل عبدالوهاب ؟ .

حملق فيها واستمرت تقول :

– أظهرت له أنى أعاديك لأنك أسرتنى واتخذتنى جارية ذليلة . .

وأظهرت للجميع هذه « العداوة » وظللت أعمل لهذا اللقاء . . حتى تحقق .

ــ لست أدرى كيف أعبر لك عن حبى . .

ــ عبّر عنه بالنزال . .

ــ إنك تفاجئينى بألغاز . . فهلا فسرت لى هذا اللغز . قولى كيف أعبر لك بالنزال . .

ــ أعلم أن مهمتى لم تنته بعد ، فهناك الأسرى الذين أخذهم الروم أمس : البطال وضيغم وغيرهما . .

ــ إذن فلن تذهبى معى الآن . .

ــ كلا ، دعنى حتى أتمم عملى . .

ــ وعلام ، عولت ؟

ــ الأسرى أولا . .

ــ ثم ماذا ؟

ــ لست أدرى الآن ، سألتقى الليلة بالبطال وأكشف له الحقيقة . إنه رجل واسع الحيلة ولا بد أن يدبر أمراً . .

ــ والآن ماذا نصنع ؟

ــ نستمر فى النزال كما قلت لك ، نكر ونفر ونتضارب . . حتى يأتى الظلام فيعود كل منا إلى معسكره ، على أن نستأنف اللقاء غداً . .

- ٢٤ -

فى منتصف الليل كان رجل أعرج يتوكأ على عصا فى زى راهب رومى ، ويلقى بالتحية باللغة الرومية لكل من يلقاه من حراس الحصن الكبير بالقسطنطينية ، ويرفع صوته بالدعاء والعبارات الدينية ، حتى وصل إلى باب المدينة ، وألقى إلى الحارس بكلمة السر ، وقال له :

ــ افتح لى يا ولدى لكى أمضى إلى الدير .

أين كنت يا أبانا حتى هذا الوقت . . . ؟

ــ كنت أدعو لسيف الروم بعميم الخيرات والبركات .

وما بعد عن باب المدينة خارجاً منها حتى استقامت خطواته ، وهرول مسرعاً نحو معسكر العرب . .

وعرف فيه العرب « محمداً البطال » فأفسحوا له . . ودخل على عبد الوهاب فى خيمته وأيقظه من النوم ، وحكى له ما تم بينه وبين « سيف الروم » . .

* * *

فى الصباح كان بدء الخطة التى وضعها البطال وتم الاتفاق على تنفيذها : دقت طبول الحرب ، واصطف الفريقان ، وخرج «سيف الروم» يختال بفرسه فى الميدان ، وينادى بأعلى صوته : هيا يافرسان ، هل من مبارز ؟ ليخرج لى منكم أشجع فارس . .

وبرز له أبو الهزاهز ، وحار فيما يصنع . . إذ يطلب منه اليوم أن يمثل دور المهزوم . . . وما اعتاد إلا على الجد فى القتال . . ثم هو يخشى أن تفلت منه ضربة تعصف بالمرأة التى هى أمامه فى زى فارس . .

قالت له إمعاناً فى التمثيل :

– ويلك يالون الغراب وعبد الكلاب . .

فزمجر وصاح بها صيحة أشفق منها عليها . . وحملت عليه ووجهت إليه ضربة سيف تلقاها بدرعه ، وجعل هو يضرب فى الهواء ، وشرعت تضايقه ، فقال لها وقد بعدا عن الأنظار :

ويحك . . والله لو أردت قتلك لفعلت منذ اللحظة الأولى ، ولكنى أريد أن أرضى أميرنا الهمام عبدالوهاب ، فهيا قيدينى ، ولا تطيلى علىّ . .

– إننا نريد أن يرى القوم صراعنا وضرابنا ، حتى لا يشك أحد فى الأمر . .

– ماأثقل على من هذا . . إنى أجد فى النزال لذة لا أشعر بها فى شىء آخر . . أما هذا الذى أنا فيه اليوم فما رأيت أثقل منه على نفسى . .

* * *

« أسر سيف الروم أبا الهزاهز »

انطلقت هذه الكلمة من فم إلى آخر فى عجب ودهشة مقرونين بالفرح فى جانب الروم ، وبالحزن والأسف بين العرب الذين لا يعلمون شيئا مما دبر . .

واستدعى ملك الروم « سيف الروم » وقام له مصافحاً وأجلسه إلى جانبه محيياً وقال له :

- قد فعلت اليوم مالم يفعله فارس من قبلك ؟

- إنى وسيفى فى خدمة مولاى الملك . .

- اطلب ما تشاء أيها الفارس الشجاع . أى البلاد تريد أن أوليك عليهـــا ؟

- إن لى طلباً واحدا يامولاى . .

- ماهو ؟ قل ، أى شىء تطلبه مجاب . .

- أطلب أن نسارع بإعدام « أبى الهزاهز »

- ولم نسرع فى ذلك ؟ ألا يكون من المستحسن أن نبقى عليه لعلنا نفدى به بعض أبطالنا الذين أسروا ؟ ؟

- لا يامولاى ، إن عندنا كثيرا غيره من العرب المأسورين ، أما هذا الرجل بالذات فيجب القضاء عليه فى الحال لأنه خطر . . لا يبعد أن يحطم قيوده ويفتك بحراسه ويعود إلى قومه . لقد تغلبت عليه بحيلة ، وبذلت ما وسعنى حتى استطعت أن آخذه أسيراً ، فإذا أفلت منا فلن يقدر عليه أحد بعد .

- فليكن ما ترى يا سيف الروم . .

- وأريد يامولاى أن يتم ذلك فى مكان بعيد عن الأنظار وألا يعلم به إلا القليل من رجالنا ، الذين يشتركون فى التنفيذ . . وذلك لأننا سنستدرجه بطريقة لا يعلم منها أنه مساق إلى الموت حتى لا يقاوم ويثور ثورة لا تحمد عقبـــاها . .

* * *

– كل شيء يتم كما تريد ياسيف الروم . .

– هناك فى « دير سافيا » نعد له العدة ، وتذهب يامولاى الملك إلى هناك لتشاهد إعدامه ، وسأكون أنا ورجالى فى حراستك . .

– ولكن « دير سافيا » قريب من معسكرات العرب ، وقد يروننا فيهجمون علينا فى الدير . .

– لا تخش ذلك يامولاى، فإننا أولا :سنذهب إلى هناك ليلا ، وثانيا: سأنظم رجالنا بحيث يكونون على استعداد لأية بادرة من ناحية العرب .

* * *

« كل شيء معد يامولاى الملك »

قال « سيف الروم » ذلك لملك الروم ، وقد أعد عدته وجاء يصحب الملك إلى « دير سافيا » وقد خرجا من باب خلفى للقصر واتجها إلى الدير . .

وفى الوقت نفسه كان هناك مجموعتان تتجهان الاتجاه عينه . . المجموعة الأولى تتألف من الخليفة وعبد الوهاب والبطال وتتحرك من معسكر العرب نحو الدير . والمجموعة الثانية تتكون من رجال فى زى جنود الروم بقيادة « هياج الكردى » وفيهم أبو الهزاهز ، ومعهم . . « عقبة المنافق »

ذلك أن البطال لم يضيع وقتا ، فقد أخذ تلميذيه : الصافى ولؤلؤة ، وتوجهوا فى ظلام الليل إلى خيمة عقبة ، ووقفوا خارجها برهة وقد رأوا شمعة مضاءة وحديثا خافتاً يدور بين عقبة وابنه مصعب . قال عقبة إنه يشعر بالاطمئنان لأن البطال وهياج الكردى أسرهما الروم ، وأبدى مصعب خشيته من أن يهربا من الأسر ويعودا . وقال عقبة :

– حتى إذا لم يستطيعا الهرب فإن ملك الروم سيفدى بهما أسرى الروم . .

وتلفت عقبة حوله وقال هامساً لابنه :

— اصغ إلى . . سأملى عليك رسالة إلى ملك الروم بأن يعجل بقتل هياج والبطال ، وعليك أن تحمل هذه الرسالة متخفياً كعادتك . .

— سمعاً وطاعة ياأبى . . فى الصباح أوافيك لآخذ الرسالة وأمضى بهـا . .

وانصرف مصعب لينام فى مكانه .

* * *

قال البطال :

— هيا يالؤلؤة . . غير من هيئتك ولحيتك واذهب إلى عقبة وقل له إنى رسول الخليفة إليك فهو يريدك الساعة . . وعندما يخرج سأتولى أمره . . هيا لا تضيع الوقت . .

وبعد لحظات كان عقبة يهرول فى أثر لؤلؤة . . وفى مكان خال بالطريق أطبق عليه البطال ووضع كرة فى فمه حتى لا يستطيع الكلام أو الصياح وقال له ساخراً :

— سعدت مساء أيها القاضى . . لاشك أنك تريد أن تسأل : إلى أين نقودك ؟ اعلم أننا ذاهبون بك إلى صديقك ملك الروم . . لابد أنك تريد أن تسأل : لماذا ؟ لأمر ستعلمه بعد قليل . .

وقادوه إلى « سيف الروم » حيث ضم للذاهبين إلى الدير . .

* * *

فى الدير . . رتب البطال و« سيف الروم » الأمر بمنتهى الدقة والإحكام ؛ جلس ملك الروم فى صدر المكان على كرسى كبير أعد له . وجلس الخليفة وعبد الوهاب والبطال بحيث لا يراهما الملك وهم يرونه ويرون كل ما يحيط به .

وقف هياج الكردى وهو فى زى جندى رومى قريباً من الملك على أنه « السياف » الذى سيطيح برأس أبى الهزاهز . .

ولكن «سيف الروم» يأخذ بتلابيب عقبة ويدفعه بين يدى هياج . .
ويتجه إلى الملك قائلا :
ـ مر بقطع رأس هذا يامولاى . .
ويصيح الملك مبغوتاً :
ـ من هذا . . ؟ أين أبو المزاهز ؟
ويتأمل عقبة على ضوء شمعة كبيرة ويقول فى صوت أقل ارتفاعاً إذ بدأ يحس أن فى الجو شيئا غير عادى . . ولكنه لا يزال مدهوشاً :
ـ هذا صديقنا القاضى عقبة . .
ولم يملك البطال نفسه وهو يجلس بجانب الخليفة ، فلكزه بكوعه وهو يقول له :
ـ أتسمع ياأمير المؤمنين ؟ صديقهم . .
ـ حقاً . . لقد كان الكردى صادقا . . مره يقطع رأسه . .
ورفع البطال صوته قبل أن يأخذ نفسه :
ـ أمير المؤمنين يأمر بقطع رأس الخائن عقبة بن مصعب . .
وسقط رأس عقبة بضربة واحدة سريعة والضارب يقول :
ـ خذها ياخائن من يد هياج الكردى . . بأمر أمير المؤمنين ، والله أكبر . . وارتفعت الأصوات تردد :
ـ الله أكبر ، فتح و نصر . .

* * *

قال ملك الروم للخليفة :
ـ أيها الملك الجليل ، إنى أعرض عليك الصلح بأية شروط تشترطونها ، غير أن لى طلباً واحداً لا يضيرك فى دينك أو دنياك . . إن فرسانكم سبوا فتاة رومية مخطوبة لولدى وهو يحبها ، فأرجوا أن تعيدوها إلينا . .

* * *

في مساء اليوم التالي كان معسكر العرب في « مرج الديباج » يموج بالأضواء والأغاني وطبول الفرح ، فقد أنيرت الشموع والقناديل ، وذبحت الذبائح ، ومدت الموائد ، وعقدت حلقات السمر ، وكانت الأحاديث مختلفة ، ولكنها كلها بهيجة : من الأعاجيب التي يرويها العائدون من أسر الروم ، ومن حكايات بطولية يتحدث بها من شاهدوها ، ومن أعجوبة الأعاجيب.. ميرونة التي كان يطلق عليها الروم لقب « سيف الروم » ومافعلت ، ومن حيل محمد البطال وأخذه عقبة ، ثم قتل هذا المنافق الخائن ، الذى كان سبباً في انقسام كلمة العرب وخلافاتهم وانتصار الأعداء عليهم ، ثم هذا النصر العظيم الذى أحرزه العرب بفضل اتحادهم وصبرهم في ملاقاة الأعداء .

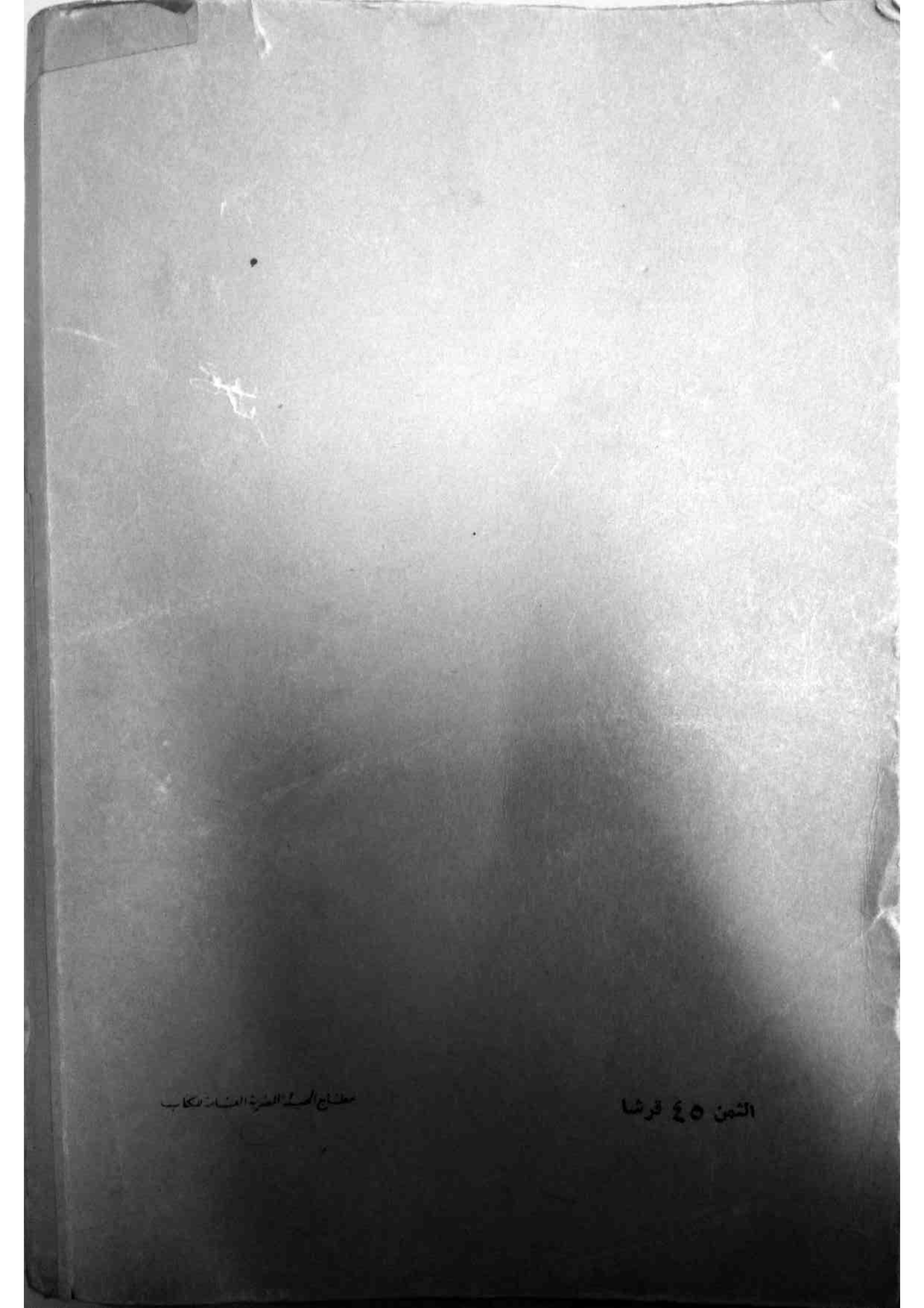
والخبر الطريف الذى سرى بين القوم في تلك الليلة ، وحكاه من رأى بنفسه فجعل من لم يشاهد يذهب ليرى بنفسه .. أن الخليفة أمر بإقامة سرادق من حرير محلى بالذهب ومؤثث بالفرش الفاخرة لخطيبة ابن ملك الروم .

ثم أحضرت الفتاة وزينت وعطرت بالعطر الشرقي وأجلست على السرير الذى أعد لها بالسرادق ، حتى جاء رسول ملك الروم ليتسلمها ، فأمر الخليفة بأن تحمل العروس إلى عريسها ومعها السرادق وكل مافيه من تحف وأثاث .

ولما أصبح الصباح وأضاء نوره ولاح ، شد العرب الرحال ، وعادوا إلى بلادهم في خير حال ، وليس بينهم عقبة شيخ الضلال .

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٦٥٣ لسنة ١٩٧٣



الثمن ٤٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب